عواد علي

# وردة الأنموروك

(سَنة الأرمن)

عواد علي

# وردة الأنموروك

(سَنة الأرمن)

الأهلية

إلى الصديق الدكتور سعد سلوم
لولاه لما كانت هذه الرواية

# تنويه

**أي تشابه بين شخصيات الرواية**
**وشخصيات حقيقية مقصود**

«أين كنتَ يا الله

لما شعبنا بأكمله نُبذَ

حتى فقد عقله وجُنّ جنونه؟

أين كنتَ يا الله

لما الألم الذي لا يُطاق

جعلنا نتضرع آمين؟

أين كنتَ يا الله

لما عيون العدالة أُغلقت وصارت عمياء؟

أين كنتَ يا الله

لمّا جمُدت كلّ صلواتنا على طرف شفاهنا؟

أين كنتَ يا الله

لما صرخاتنا من أجل الخلاص هزّت السماء؟

كنتَ صامتًا يا الله

لما كنّا معلّقين على الصليب

أعطِنا القوة يا الله

لكي لا نضيع في عواصف بحر هذه الحياة»

أغنية أرمنية عن الإبادة

**«لقد ذبحنا السكّان الأرمن الأبرياء، وحاولنا تحطيمهم بأساليب تنتمي إلى العصور الوسطى»**

**الروائية التركية خالدة أديب، 1918**

# (1)

لفتت الجمجمة انتباهي، دون العظام المعروضة في مدافن مزجّجة، فركّزت بصري عليها وأصدرت تنهيدةً عميقةً، ثم غطّيت عينيّ بظاهر يدي كما لو أن ضوءًا ساطعًا أغشاهما، وتراجعت إلى الوراء مضطربةً.

أسرع ابني صوغومون إلى الإمساك بي لئلا أسقط على الأرض، وأخرجني من بين المتحلّقين حول عمود الانبعاث في متحف الكنيسة، وأجلسني على أريكة مريحة في الصالة. سألني، حين استعدت شيئًا من توازني، عما أصابني، فأشرت إلى الجمجمة «ألا يُحتمل أن تكون جمجمة جدّك وارتان أو خالك آرام؟».

فوجئ بالسؤال في لحظة خاطفة، فلم يحر جواباً، ظنًّا منه أنني أهلوس. حدث ذلك بعد مرور نحو ساعتين على افتتاح كنيسة شهداء الأرمن في دير الزور، شتاء العام 1991، وانتهاء القدّاس الذي أقامه كاثوليكوس عموم الأرمن لبيت كيليكيا.

وفد المئات، من مختلف الأعمار، دفقةً إثر دفقة، إلى الكنيسة، حاملين الشموع والورود لإحياء سَنة الأرمن، ذكرى الإبادة

الكبرى («ميدز يغيرِن» كما نسميها بلغتنا)، والمشاركة في القربان المقدّس (الإفخارستيا)، تجديدًا للقربان الأول.

هبط بي صوغومون، ظهر ذلك اليوم، إلى الصالة المهيبة المخصصة لعرض ما تبقى من عظام الضحايا أسفل الكنيسة، فإذا بها تغصّ بجمهرة من النساء والرجال والصبيان. جميعهم خفّوا لرؤية تلك العظام في مدافنها المزجّجة، المصممة على شكل دائرة تحيط بقاعدة عمود الانبعاث.

تمنّيت يومها لو أن زوجي أرمين كان حيًّا، آنذاك، ليصحبنا إلى الحدث العظيم، حدث افتتاح الكنيسة، لكنه توفي قبلي، تاركًا فراغًا كبيرًا في حياتي.

كنت على يقين راسخ بأن في دخيلة كل واحد من حاملي الشموع والورود، المحيطين بتلك المدافن، ترقد صور حقيقية، أو متخيّلة، لأفراد من أسلافهم الذين قُتلوا أو ماتوا من شدة التعب والجوع في القوافل (السَوقيّات)(*)، وزاد يقيني بذلك عندما قصدنا، في ما بعد، تل «مرقدة» لإكمال حجّنا.

استويت واقفةً، بعدما أخذت قسطاً من الراحة، وقلت لصوغومون «سأعود إلى محيط عمود الانبعاث». أومأ برأسه موافقًا، فاندّسست وسط الجمع من جهة الجمجمة. أردت أن أكون وجهًا لوجه مع الجمجمة، لكن رجلًا عجوزًا يستند إلى عصا أبنوسية كان يقف إلى جواري، يحني ظهره ليتفرّس في الجمجمة بدهشة، مثل طفل يرى الأشياء أول مرة. تريّثت حتى يتحرك من

(*) تعبير آخر يُطلق على قوافل الأرمن المبعدين.

مكانه لأحل محلّه فلم يفعل. ظل مستغرقًا في تفرّسه وكأنه يفكّر في الاحتمال نفسه الذي فكّرت أنا به، فاقتربت منه، وتعمّدت أن ألامس ذراعه، عندها شعر بأنني أريد أن أزيحه، وسرعان ما أخلى لي المكان.

أسندت مرفقيّ إلى الزجاج الذي يغطي الجمجمة، ووضعت رأسي بين يديّ، وغرست بصري فيها. بعد دقائق بسطت كفي على الزجاج، وشرعت أحركها كأني أزيل عنه غبارًا يحجب رؤيتي، إلاّ أنني رفعت يدي بسرعة وأرخيتها على صدري.

سحبني صوغومون ثانيةً من بين الجمع، وأخرجني إلى باحة الكنيسة. أقعدني على مصطبة قرب جدار منمّق بنقوش عربية وأرمنية، ينبثق منه ينبوعان يتدفقان بماء بلوري، وسألني عما حدث، دمدمتُ:

- شعرت بلسعة أشبه بلسعة شحنة كهربائية.

- يا يسوع! يبدو لي أنه شعور ناتج عن التعب.

- تخيّلت أن الجمجمة تحدّق إليّ بنظرات ظمأى، كأنها تستغيث بي لإخراجها من بين العظام المعروضة، وتمنيت لو أن الله يبعث صاحبها حيًا، كما بعثت الآلهة الأرمنية القديمة أخاها الإله «آرا» الجميل بعد مقتله في الحرب.

قال صوغومون في دهشة:

- لماذا سألتِني ألا يُحتمل أن تكون جمجمة جدّي أو خالي؟ ألم تحكِ للجميع أن دركيًّا عثمانيًّا قتلهما في الطريق؟

- بلى، لكن ربما حملتهما ريح هائمة على جناحيها وسارت

خلف قافلة المُبعَدين، أو أن جماعةً من الغجر وجدوهما في طريقهم وأتوا بهما على ظهر عربة من عرباتهم، ودفنوهما في تل مرقدة؟

قيل لنا، في الفندق الذي أقمنا فيه، إن تل «مرقدة» الواقع بين دير الزور والحسكة يضم رفات مئات من الضحايا الأرمن، يكفي أن ينبش أحدهم التراب بيديه حتى تظهر الجماجم والعظام المدفونة. عندما بلغناه لم أمتلك الجرأة الكافية على إزاحة التراب بيديّ خوفًا من أن أهشّم جمجمةً أو عظمًا، فجثوت على الأرض، وصرت أتطلّع، بعينين متوجستين، إلى الحُجّاج الذين أخذوا يزيحون التراب بأصابعهم في أناة. وخلال بضع دقائق ظهرت بالفعل عشرات الجماجم والعظام كما يظهر الكمأ تحت الأرض في الربيع.

غامت نظراتي أمام المنظر الرهيب، ورحت أبكي في حرقة، كأنني أعيش من جديد الغدر الذي أُنزل بأُسرتي، والكارثة التي حلّت بها. لم يتحمّل صوغومون رؤيتي على تلك الحال، فأخرج منديلًا من جيبه، وكفكف دموعي، وأنهضني من الأرض، ودفن رأسه في حضني، وأعادني إلى الفندق.

بقيت ذلك اليوم أسيرة نكوص إلى الماضي المندثر، الذي كنت أتفاداه منذ أمد طويل. ويا له من نكوص مرير جعلني أستدعي ما انطوى وتوارى في رحيل الأيام، وما ترسّب في قاع ذاكرتي المهشّمة، ألوذ بشطحات مخيّلتي تعويضًا عما لم تستطع الذاكرة استعادته تحت وطأة السنين، وضياع مذكّراتي المكتوبة في منزل السيدة جوري الشمّرية، أمّي الثانية التي تبنتني مذ قادتني الأقدار إليها في الموصل.

كنت في السادسة والعشرين حين شرعت في تدوين تلك المذكّرات، ولما انتهيت من تدوين الجزء الأول منها، قبل زواجي، وجدت أن أسلوبه يحتاج إلى تنقيح وتحسين، فاستعنت بكاهن كنيسة الأرمن المقدسة، في سوق الشعارين الموصلّي، الذي كان ضليعًا في اللغة العربية وشاعرًا ذائع الصيت. أما الجزء الثاني فقد بدأت في تدوينه عقب زواجي، ولم أتوقف إلاّ في ربيع عام 1941، عندما أخذت القوات البريطانية تزحف إلى بغداد لاحتلالها، وإسقاط حكومة الإنقاذ الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني. آنذاك رحلت رفقة زوجي وبناتي الثلاث إلى الموصل، وكنت حاملًا بصوغومون، وأقمت في منزل جوري حتى انتهاء الحرب، وعودة الوصي الأمير عبد الإله ونوري السعيد إلى الحكم.

أخذت معي دفتر مذكّراتي، ضمن الحاجات التي أخذتها، لأعرضها على الكاهن نفسه الذي نقّح الجزء الأول، لكني فوجئت بانتقاله إلى ملكوت السماء، فتولّى زوجي المهمة، بعد رجوعنا إلى بغداد، وكان متمكّنًا، إلى حد ما، من اللغة العربية. على أنه لم يكتفِ بتنقيحها، بل دون فيها بعض الحواشي، وجعل صديقتي مريم وأمها كلاديس ترويان على لسانهما كيف نجتا من الهلاك في قافلة الإبعاد.

بقيت محافظةً على الدفتر، مثلما يحافظ أي شخص على كنز ثمين، طوال السنوات التي أعقبت رجوعي إلى بغداد، وعندما بلغني نبأ مرض أمّي جوري، أيام تتويج الملك فيصل الثاني عام 1953، أصرّت على أخذه معي، مرةً ثانيةً، إلى الموصل، خشية أن يقع في يد أصغر بناتي أراكسي فتعبث به.

رافقتني ابنتي الكبيرة وصوغومون، ومكثنا هناك نحو 3 أسابيع إلى أن تحسنت صحة جوري، لكنني نسيت الدفتر في بيتها، ولم أفطن إليه إلاّ بعد عودتنا إلى بغداد. عقب مرور شهرين على ذلك فارقت جوري الحياة، وعندما ذهبت لحضور عزائها لم أعثر على الدفتر، فأوجعني ضياعه.

عقب رجوعنا من دير الزور إلى بيتنا في دمشق بأيام، زارتني سلطانة ابنة جوري، قادمةً من حلب، حيث تقيم هناك منذ سنوات مع حفيدها هاشم، الذي فرّ من الجيش أثناء الحرب مع إيران، ودخل سوريا تهريبًا، وعمل وتزوج في حلب.

كان ذلك الحفيد الابن الثاني لابنتها ريمة من زوجها الذي ينحدر من أصول حلبية، وهو في سن حفيدي سيروب، لكن يلوح عليه أنه أكبر منه. حين فارقنا العراق كان فتى يافعًا، خجولاً على نحو مفرط، ناضجًا في أعماقه قبل أن ينمو الرجل الذي في داخله، محبًّا للموسيقى، تلهب خياله الأنغام الشرقية، ويُطلق تعبيرات الدهشة عندما يسمع لحنًا جميلاً، لذا كان ينقّب عنها، رفقة حفيدي، كلّما جاء إلى بغداد، في محلات أشرطة الكاسيت.

أمضى في ما بعد سنتين جنديًّا في الخطوط الأمامية، إثر مقتل أخيه في هجوم إيراني على وحدته العسكرية، وأصيب بجرح في ساقه خلال احدى المعارك، وعاد بعد التئام جرحه إلى وحدته. غير أنه ما كاد يقضي سنةً واحدةً في الجبهة حتى جُرح مرةً ثانيةً في الفاو إبّان الهجوم الإيراني الكبير عليها، فدبّر له أبوه طريقًا للخروج من الموصل أوصلته إلى أعمامه في حلب، رغم أن ذلك ما كان أمرًا سهلاً قط خلال سنوات الحرب العصيبة.

روت لي سلطانة في تلك الزيارة كيف دخلت سوريا عن طريق تركيا، وفاجأتني بأنها تحتفظ بمذكّراتي في بيت حفيدها بحلب، ووعدتني بأن تجلبها معها في المرة القادمة. أذهلني الخبر، فسألتها أين عثرتْ عليها بعد كل هذه السنين الطويلة، قالت، بشيء من الاعتداد، إنها وجدتها داخل حقيبة جلدية محفوظة في صندوق معدني من مخلفات أمّها في سرداب المنزل. إلاّ أنني لم أستطع، من شدة لهفتي، الانتظار حتى تأتي بها سلطانة بعد سنة أو أكثر، فمن يضمن أن واحدةً منا، لن تفارق الحياة قبل ذلك التأريخ وقد أصبحت قدماها في القبر، كما يقولون، فسلطانة في الثانية والثمانين من عمرها، بينما عبرت أنا التسعين، لذا فكّرتُ في أن أحصل على مذكّراتي بأسرع وقت، ولم أجد طريقةً أفضل من إرسال صوغومون إلى حلب، فأذعن لرغبتي، ورجع في اليوم التالي متأبطًا دفتر المذكرات.

حين وضعه بين يدي ضممته إلى صدري كما تضم عاشقة متيّمة حبيبها إلى صدرها بعد فراق طويل. اصفرّت أوراقه قليلًا، إلاّ أنها لم تهترئ، كان الفضل يعود، من غير شك، إلى أمّي الشمّرية، فلو لم تحتفظ به في تلك الحقيبة الجلدية السميكة لتلفت أوراقه أو قرضتها الإرضة.

كانت لدي رغبة شديدة في قراءة مذكّراتي، التي أضناني الشوق إليها، لكن الأمر استصعب عليّ بسبب عينيّ الكليلتين، مع أن نظّارتي الطبيةً لم تكن تخطئ حتى القملة. استنجدت بصوغومون ليقرأ لي كل يوم جزءًا منها، وكانت قدرتي على السمع لا تزال على ما يرُام، فلبى رغبتي عن طيب خاطر، وصرت أصغي إليه في لهفة، وأستعيد الأحداث في ذهني كأني أعيشها مجددًا..

## (2)

كنّا ثلاثة على ظهر حمار أشهب في قافلة المنفيين من سِيفان: أنا لوسين ابنة الخامسة عشرة في المؤخرة، وأخي آرام الذي يكبرني بعام واحد في المقدمة، وأختي الصغرى زاروهي ذات الاثني عشر عامًا في الوسط. أما أبي وارتان وأمي تامار فقد كانا يسيران أمامنا، يملأهما الغمّ والكمد ويأخذ بأنفاسهما كأننا مساقون إلى المسلخ.

كانت أمّي تشكو من وعكة صحية لازمتها منذ مدة، وقد هالني مظهرها الشاحب، ووجها المُضنى الذي يبعث على الرثاء، ونظرتها التي تخفي إحساسًا لا يسُرّ. توسل إليها آرام أن تحل محلّه على ظهر الحمار، لكنها رفضت، مستصعبةً ترك ولدها الوحيد يتحمّل السير على قدميه، بينما كان يجدر بها أن تستجيب له، وألاّ تسرف في عاطفتها الأمومية وهي الأعلم من غيرها بدائها.

لم تكن أوزاننا، نحن الثلاثة، أثقل مما يستطيع الحمار أن يتحمّله، ففي أيام «السفر برلك»، وقتَ أن كان الحصول على الغذاء أمرًا غير يسير، كانت أجسامنا ضئيلةً لا تزيد مجتمعةً عن نصف وزن الحمار.

سنوات بعد ذلك، فهمت أن شحّة تلك المواد آنذاك لم يكن سببها عجز في الإنتاج الزراعي، بل لأن الألمان كانوا يضعون أيديهم عليها، ويشحنونها إلى بلادهم من غير أن يكترثوا لنا نحن الجياع.

كان المنفيون يدبّون على أقدامهم؛ حاملين على ظهورهم سلالًا وصررًا كبيرةً وشِوالات دسّوا فيها بعض المؤونة والبطانيات، لا يُسمع وقع خطاهم، يمسّون الأرض مسًّا خفيفًا، حتى يحسب مَن يراهم أنهم من دون وزن، يسوقهم الجندرمة (الدرك) المسلحون بالبنادق والمسدّسات والهراوات والسياط، عدا قلة من المحظوظين، الذين يمتلكون حميرًا أو بغالًا أو وعربات خشبيةً، فقد أوكلوا لها مهمة حمل أطفالهم وبعض القوت والأفرشة.

لم يكن بمقدورنا، نحن المحشورين في المنتصف، رؤية رأس القافلة أو ذيلها إلاّ عندما تصعد الطريق إلى التلال أو تنحدر إلى الوهاد. حينئذ تبدو مثل ثعبان الأسطورة الهائل الذي يهاجم قارب الشمس لمنعه من الإبحار إلى الأفق.

لا أتذكّر من أين حصل أبي على ذلك الحمار، لكن في حكم المؤكد أنه اقتناه من فلّاح مقابل قطعة ذهب كانت تحتفظ بها أمّي من أيام عرسها، فإبّان تلك المحنة كان الحمار يعادل سيارةً في وقتنا الحالي.

كان عريض الكفلين، عزمه أشبه بعزم بغل أو سفينة تقاوم الريح، إلاّ أنه كان هادئ الطبع، صبورًا، مقارنةً بالحمير التي كانت تتمنّع عن السير حين ينال منها التعب والعطش، فتحرن وترمي

أثقالها على الأرض. ولا أنسى ذلك الحمار الهرم الذي ألقى من على ظهره صبيّين، وهو يرتقي تلًّا مرتفعًا، فتدحرجا إلى الوادي، ولم يستطع أبواهما إنقاذهما لأن الجندرمة هدّدوهما بالقتل إذا خرجا من القافلة. كان مشهدًا مأساويًا يشقّ على المرء تحمّله، لا بل يدمي القلب، جعلني أتحسّر كثيرًا، وما برحت ذكراه محفورةً في ذاكرتي.

لم أسمع الحمار ينهق يومًا ما، لا أدري لماذا، إلاّ أن جارتنا الكردية العجوز كاجال، التي تشبه طائر مالك الحزين بسبب بروز عظامها، فسّرت ذلك، عندما حدثتها عنه أمّي، بأن الحمار ينهق فقط عندما يرى شيطانًا، ولذا ينبغي على من يسمعه، إن لم يكن به صمم، أن يتعوّذ بالله من الشيطان.

وقتها كنت حاضرةً معهما، وكادت تصدر مني ضحكة لولا أني كززت على أسناني، وسألت العجوز كاجال:

- هل الحمير ترى الشياطين؟

حكّت ذقنها، الذي نبتت عليه شعيرات بيض، وأجابت في ثقة:

- القطط والعصافير تراها أيضًا.

ابتسمت أمّي وعلّقت قائلةً:

- معنى ذلك أن بيتنا ليس فيه شيطان؟ حمدًا لله.

كانت طريقة تعليقها تضمر سخريةً، أما العجوز كاجال فلم تكتفِ بذلك التفسير، بل أضافت قائلةً بعد أن بلّلت شفتيها بلسانها:

- أما صياح الديك فإنه يعني أنه رأى ملَكًا.

أرسلت أمّي إليّ نظرةً خاطفةً، وكأنها تستنجد بي لأردّ على العجوز، فقلت من فوري، متهكّمةً:

- لذلك لا تكفّ ديَكة جارنا راؤول عن الصياح فجر كل يوم!

لم تحس العجوز بنبرة السخرية في تعليقي، فمضت قائلةً:

- لكن يمكن للساحر جعل الديك يصيح متى يشاء بإرسال الشيطان لإخافته.

وأحكمت قبضة يدها اليمنى، التي تشوّهها ندوب من الحروق، كما لو أنها تتأهب لضربي، وتابعت:

- هل تسمعان في الليل نباح الكلاب يتبعها مباشرةً صياح الديَكة، ثم نباح الكلاب، ثم صياح الديَكة؟

أجابتها أمّي بصوت متراخٍ:

- أسمع نباح الكلاب أحيانًا، غير أني لا أسمع صياح الديكَة بعدها مباشرةً.

أما أنا فسألتها:

- وما تفسيرك لذلك؟

لمستني كاجال من معصمي، وزمّت شفتيها:

- إنها حرب بين الملائكة والشياطين.

أمسكت خاصرتيّ كي لا أنفجر من الضحك، ففغرت العجوز فمها الخالي من الأسنان، ورمقتني بنظرة احتقار، وانصرفت، مستاءةً، تحك عجيزتها، متخذةً سبيلها إلى منزلها.

## (3)

كانت بلدتنا تحمل أكثر من اسم، نحن الأرمن نسميها «سِيفان»، تيمنًا باسم احدى البحيرات الكبيرة في المملكة الأرمنية التاريخية، والأتراك يسمونها «تشوبانلي» على اسم قائد عسكري عثماني، أما الأكراد فيسمونها «أفيندار»، أي العاشق، تخليدًا لذكرى فلاّح شاب شجاع أحبّ ابنة آغا وأحبته، لكن أعوان ذلك الآغا قتلوه غيلةً. وكانت منازل البلدة واطئةً، خلا بضعة منها ذات طابقين، مبنية من الآجر وشيء من الخشب، وسقوفها مسطحة مغطاة بطبقة رقيقة من الطين. يحيطها من الشمال نهر الفرات، وعلى يمينها هضبة شاسعة تتخللها أودية، وتنحدر جنوبًا إلى سهل تغمره الخضرة، وتنتهي من جهة الغرب إلى غابة يتغير لون أشجارها وتستبدل أوراقها بين فصل وآخر.

رأيت تلك الغابة مرات عديدةً رفقة أبي وأخي آرام. كنا ندخلها قبل موسم الشتاء بعربة يجرها كديش، اعتاد أبي على استعارتها من كاهن الكنيسة، لنجلب بها الخشب.

أتذكّر أنه اصطاد ذات مرة أرنبًا أبيض طويل الشعر ناعمه، مصابًا في قدميه الخلفيتين، ويتعذر عليه الجري، فضمّده آرام وسجنه في قفص نحو شهرين.

كنت ألاحظ ذلك الأرنب يجتر بطريقة كاذبة؛ محرّكًا شفتيه كأنه يتكلم.

قال جارنا راؤول لأبي، في زيارة له إلى بيتنا:

- إذا كنتم تفكرون في أكل لحمه فأنتم مخطئون.

سأله أبي:

- كيف يا جاري؟

سعل راؤول وأجاب:

- لسببين، أولهما أنه من الحيوانات النجسة، وأكله محرّم في الكتاب المقدّس.

- والسبب الثاني؟

- يتعلق برؤية المرأة الحامل للأرنب.

- ماذا يحدث لها إن رأته؟

- يأتي وليدها شبيهًا به؟

- شبيهًا بالأرنب؟ من أي ناحية؟

وضع راؤول سبابته على شفته العليا:

- يخرج من بطن أمّه أشرم.

ضحك أبي ساخرًا، وردّ عليه:

- هذه من خرافات العجائز، هل سمعتها من الجارة كاجال؟

- لا يا وارتان، إنها مسألة شائعة.

- لا بأس يا راؤول، أنا أحترم ما تعتقد به، إلاّ أن زوجتي حامل ولحم الأرنب فيه فائدة كبيرة لها، هل أشرح لك لماذا؟

- لا تشرح لي، أنت لست أعلم من الكتاب المقدّس.

- عجيب أمرك، دعني أشرح لك.

- لا تقل لي أيّ شيء، تخلّص من الأرنب وأنا أعطيكم بدلًا منه ديكًا.

- أشكرك على كرمك، لكني أريد أن أوضح لك الأمر فقط.

- لستُ في حاجة إلى أي توضيح، أنا حذّرتك من مغبّة أكل الأرنب، وما دمتَ مصرًّا أطعم زوجتك من لحمه وصلّ لربك في الكنيسة!

كان راؤول في الستين أو أكثر بقليل، كريمًا أحيانًا، وبخيلًا جِلدةً أحيانًا، قائم العود، مضنيًّا كأنه لا يأكل، رغم كونه ميسور الحال. توجد تحت عينه اليسرى ندبة من أثر جرح قديم لا أحد يعرف ألبتة قصته أدنى معرفةً، وله شاربان يثابر على حلقهما مدةً، ويتركهما يطولان مدةً أخرى، دون أن يشذّبهما عندما يكون مزاجه سيئًا. يمتلك منزلًا ثانيًا غير المنزل التي يقطنه هو وزوجته شوشانة، وبناته الثلاث سارة وراشيل وأستير.

كانت سارة، وهي أصغرهن وأجملهن، تنبض بالحيوية، على نحو جلي، في عينيها شرارة استجابة لكل مثير غرائزي، تخرج من صدرها تنهيدات صغيرةً، على الدوام، كأنها فقدت شيئًا عزيزًا لن تنال مثيلًا له، لكن المسكينة كانت تعاني، لسوء الحظ، من صرع ينتابها مرةً أو مرتين في الأسبوع، ويسبب لها اختلاجات، وتشنجًا متكررًا في الذراعين والساقين، وفقدان الوعي أحيانًا. وكانت راشيل عانسًا نزقةً، ذات شعر مشعث، ووجه بلون البطاطا النيئة، وأنف

بارز، مسكونة بالتعاسة، يتملكها إحساس بالخواء، لا تعتني بنفسها بسبب قناعتها بأن زواجها أمر بعيد المنال، فليس ثمة رجل يفطن إليها، أو يجد فيها شيئًا مستعذبًا.

أما أستير فكانت في الثلاثين من عمرها، سمراء جامحة، ممشوقة، ذات شفتين ممتلئتين حسيّتين، ثرثارة، ذلقة اللسان، تعمل في إدارة البريد والتلغراف بسِيفان، غير أنها غالبًا ما كانت تبدو شاردة الذهن، تضيق ذرعًا بكل شيء، تتذمّر من عملها الإضافي، رعاية دواجن أبيها الأثيرة إلى نفسه، وتستبد بها رغبة واحدة: أن تفوز بعريس وسيم وغني، أيًّا كانت ملّته، من مدينة بحرية مثل القسطنطينية أو إزمير أو أنطاليا، تستطيع أن تعيش فيها حياةً حقيقيةً، لأنها تعتبر سِيفان سجنًا يستحيل أن تحقق فيها ما تتوق إليه. وكان أبوها يستخف برغبتها في غلظة، مشبّهًا إياها بمن يلهث وراء السراب الأزرق في أرض سبخة.

من ممتلكات راؤول، أيضًا، مطحنة يعمل فيها مجموعة عمّال، ومحل للأفرشة وملحقاتها يديره عامل يتقن الحرفة، وتساعده راشيل في الخياطة.

كان موقع المحل في الشارع المؤدي إلى مدرستي، وكلما مررت من أمامه، وأنا راجعة أيام منتصف الربيع، أرى راشيل منهمكةً في العمل، بينما يجلس أبوها سحابة يومه على مقعد خشبي عند مدخله؛ لابسًا رداءً ليس له أكمام مثبّت على بطنه بلفة قماش أبيض (يشبه الرداء الذي رأيت الفلاحين لاحقًا يلبسونه في الموصل، ويسمونه «الصاية» أو «الزبون» إذا كان مبطّنًا) فوق ثوب مكون

من قطعة واحدة كاملة تغطي جسمه وذراعيه (يشبه الدشداشة العربية)، واضعًا ساقًا على أخرى، كأنه زعيم شعبي، ويدخن النارجيلة في متعة؛ مستأنسًا بقرقرة الماء في قاعدتها، مطلقاً شريطًا طويلًا من الدخان.

عندما تجنح الشمس إلى المغيب، وينتشر وهجها الأرجواني المهيب على سِيفان، كان يقصد داره، مجرجرًا قدميه، ويداه معقودتين خلف ظهره، تاركًا للعامل عناء حمل النارجيلة والمقعد إلى داخل المحل. وفي أيام الشتاء الباردة يلبس فوق ردائه رداءً آخر طويلًا يشبه العباءة، مبطّناً بالصوف، وذا كمّين واسعين يغطيان معصميه، ويجلس على مقعده الخشبي ذاته داخل المحل أمام موقد ممتلئ بالجمر. وفي كل فصول السنة يعتمر الكيباه(*) فوق صلعته التي تشبه إناءً من الفخار.

انتاب أمّي، بعد مدة وجيزة، قرف من ذلك الأرنب بسبب إدمانه على أكل برازه، إلاّ أنها انتظرت حتى تشفى قدماه لتطلق سراحه.

عندما علم راؤول بالأمر شجّعها على التخلص منه، وعوّضها عنه بديك هراتي، قائلًا لها «لحمه علاج للقولنج والربو والريح الغليظة إذا طُبخ بماء العصفر»!

(*) غطاء رأس مستدير يشبه الطاقية، لكنه أصغر منها، يرتديه الرجال اليهود.

## (4)

في صبيحة أحّد السفح، أول أيام أسبوع الآلام، وذكرى دخول المسيح القدس، لم يكن الجو رائقًا مقارنةً بالصباحات السابقة التي كانت نسائمها تنعش الصدور. أطلقت مدفعية الجيش في نحو الساعة السادسة قذائفها لإرغام الأهالي على الإفاقة من رقادهم، رغم أن أغلبهم لم يذق طعم النوم، في الليلة السابقة، بسبب أصوات الطبول والأبواق المزعجة في أحياء سِيفان.

كانت تلك الأصوات تدعو المؤمنين للالتحاق إلى مركز التجنيد من أجل الجهاد ضد الكفّار الروس والإنجليز والفرنسيين، أعداء الوطن، فيما كان أصحاب الطبول والأبواق، والزعماء الاتحاديون الممسكون بزمام السلطة، يعلمون أكثر من غيرهم أن أغلب المسلمين في السلطنة لم يكونوا يرون في الجهاد ما يسوّغ الإقدام على الموت، فيهربون ويتوارون عن الأنظار، على العكس من السلطان الأحمر، الذي كان يعتقد بأن إعلان الجهاد سيكون قبسًا يشعل العالم الإسلامي بأجمعه، فينهض ويمحق الأعداء عن وجه الأرض ويبيدهم!

هبّ الأهالي، فزعين، على أصوات جهوَرية تزعق، وفتحوا

الأبواب الخارجية لمنازلهم، وأخرجوا رؤوسهم ليستطلعوا الأمر، وجدوا الشوارع في حالة هياج تعجّ بجندرمة وفرسان حميديّين يقف أمام كل زمرة منهم رقيب (أونباشي)، وتصطف خلفهم مجموعة عربات خيل، بعضها مغطى، وبعضها مكشوف يحمل أمتعةً وأفرشةً عسكريةً (يطغات). ما إن أبصر الرقباء الرؤوس المطلة من الأبواب حتى أخذوا ينادون «فرمان همايوني شريف: على جميع أفراد مِلّة الأرمن مغادرة تشوبانلي، وترك ممتلكاتهم لتؤول إلى الحكومة. انتهى الفرمان، احفظوه جيدًا، لا أحد منكم يبقى في تشوبانلي منذ اليوم، لا أحد، أنتم سرطان يجب استئصاله من دولتنا العليّة، ومَن تسوّل له نفسه عدم الامتثال للفرمان خلال ساعة سنعدمه، سنصليه بالرصاص».

حين انتهى الرقباء من تلاوة الفرمان انبرى الجندرمة يمطرون الأهالي الأرمن بوابل من العبارات البذيئة والشتائم المقذعة، من ذلك النوع الذي يستعمله أولاد الشوارع، ويتوعّدون باغتصاب بناتهم إن خالفوا الفرمان.

لم يذكروا اسم المكان الذي سينفوننا إليه، لكن الجميع كانوا على علم بشعار حملة السلطان عبد الحميد «افعلوا بالأرمن ما تشاؤون»، ويعرفون أن سلطة الاتحاد والترقي ترى في الأرمن أكبر عقبة أمام قيام دولة طورانية نقية، وأن التطهير العرقي أفضل طريقة لقيام تلك الدولة، لذا قررت إبعادنا بتهمة الخيانة والتمرد المسلح لصالح روسيا.

اعتقد أبي بأن وجهتنا ستكون جنوبًا حيث بادية الشام، بينما

خمّنت أمّي أنها ستكون أرارات في الشرق. وكانت قد حرصت، عندما تأكّد لها أن طلعت باشا سينفي جميع الأرمن، على تجهيز بردعة مريحة، محشوّة بالصوف، وعدد من البطانيّات وأكياس النوم.

كان الحزن باديًا على وجه أختي زاروهي أكثر منا، أنا وآرام. اختفت قطتها ذلك الصباح، وبحثت عنها في كل زوايا البيت ولم تعثر عليها. قالت لأمّي بصوت يشبه صوت طائر عليل:

- قطتي لا أثر لها، أتعرفين أين تكون؟

- لا أعرف، نحن في أية حال وأنت مشغولة بالقطة! لا ينقصنا إلا وجود القطط معنا.

- كنتِ تمتدحينها لأنها تنظف البيت من الفئران والآن لم تعد لها قيمة؟

- البيت نفسه لم يعد له قيمة، ألم تسمعيهم يقولون على جميع أفراد مِلّة الأرمن ترك ممتلكاتهم؟

صمتت زاروهي برهةً، ثم عاودت تسأل:

- عيد الفصح مقبل كيف سنفرح؟

اصطدمت أمّي بسؤالها، وتعذّر عليها العثور على جواب مقنع، فخدعتها قائلةً:

- لا عليك، في وسعنا أن نفرح مع الجمع في البريّة.

- هل الرحلة طويلة؟

- كيف لي أن أعرف، لم أجرّبها من قبل.

- وجدّتي، هل ستكون معنا؟

- كيف تكون معنا وهي ضريرة؟ أظنهم سيشفقون عليها ويتركونها لشأنها. ليحفظ الله أمّي من كل سوء.

- مَن سيعتني بها.

- لا بدّ أنها ستلجأ إلى جارتنا كاجال.

- لن تستطيع كاجال أن ترعاها، إنها هرمة مثلها وتحتاج إلى رعاية.

- لا تخشي عليها، ابنتها تتفقدها يوميًا وتقضي حاجاتها.

- لكن جدّتي ضريرة فمَن سيقودها إليها؟

- ما دامت مؤمنة لن يتخلى الله عنها.

- لماذا لم توصِ راشيل وأستير لتعتنيا بها؟

فغرت أمّي فاها، وقالت متبرّمةً، دون أن ترفع عينيها عن الحمار:

- زاروك أنت تلحفين في أسئلة تعجيزية ليس بميسوري الإجابة عليها.

هكذا كانت زاروهي، منذ زمن بعيد، بنتًا لحوحةً دائمًا وصعبة الانقياد، انطوائيةً ونكدةً، لا صديقات لها، تذهب إلى المدرسة بمفردها وتعود بمفردها، ترفض مرافقتي، ولطالما كانت تبكي حين تشعر بالجوع أو البرد، أو يأخذ النعاس بمعاقد أجفانها، وتغطي وجهها براحتيها كما لو أنها نائمة. كان من دأبها أن تمكث في البيت خلال النهار وحيدةً مع قطتها، تجد ملاذها في صحبتها، وفي الليل تخلد إلى النوم باكرًا، إلاّ في ما ندر، حين يستهويها

التحديق إلى قرص القمر من الشباك ساهمةً، وكأنها تحدّق إلى المستقبل أو إلى حديقة ترفل بالورود، وغالبًا ما تضع القطة إلى جوارها في الفراش.

كانت فتاة البيت المدللة، لديها عادات سيئة، إلاّ أنني لم أكن أعير ذلك أي اهتمام، فأنا لي عالمي وهي لها عالمها.

كان أبي يعلم، بحكم عمله إيبودياكون(*)، جدية تهديدات الجندرمة، فقد كانت تصله أنباء مختلفة عن مذابح وإعدامات في بلدات وقرى أرمنية، لذا فكّ لجام الحمار، وجلّله بالبردعة وبعض الأغطية، وقال لنا متحسّرًا «القوا تحية الوداع على سِيفان، حانت ساعة إبعادنا عنها»، ثم رفع رأسه إلى السماء وأضاف «سنفوّض أمرنا إلى يسوع المخلّص، لقد آمنّا به وعليه أن ينجينا من هذه المحنة».

وبينما جاءت شوشانة وبناتها ليودعننا، وعيونهن تهمي، أمرتني أمّي بأن أسرع إلى نزع ثيابي، وارتداء جلباب قديم لآرام، وألقت عليّ لثامًا رجاليًا لأواري به وجهي وأستر أنوثتي.

* * * *

كانت أمّي قد احتاطت للأمر، قبل أيام، فوشمت أسماءنا، آرام وزاروهي وأنا، على معاصمنا بالأرمنية كي نلتقي إذا تفرّقنا، وقصّت شعري مثل الأولاد؛ قائلةً:

- يجب صرف أنظار الوحوش عنك. أنت صبية جميلة ولن نستطيع صدهم إذا أرادوا اغتصابك.

---

(*) مساعد شماس.

تمتمتُ بألم:

- لكنّ وجهي سيفضحني.

- لا عليك، ستخفينه بلثام رجالي.

لم يهن عليّ رمي خصلات شعري، التي كانت تنسدل على كتفيّ مثل ألسنة من نار، حين أفك ضفيرتي، فجمعتها ولففتها بخرقة قماش، عدا خصلة واحدة، ودفنتها تحت شجرة الرمّان، وفي داخلي سؤال يتّقد: هل سيقبّلني آرشاك إن رآني على هذه الصورة المضحكة؟

* * * *

عملتُ بما أمرتني به أمّي، وتناولتُ الإنجيل، ووردة الأنموروك التي أهدانيها آرشاك عندما التقيته آخر مرة، وخصلة شعري، وعددًا من الحاجات التي تخصّنا أنا وزاروهي، ودسستها في خرج منسوج من خيوط الصوف، وعلّقته على كتفي، وحزمت خصر زاروهي بحزام جلدي، وأحطت رقبتها بوشاح أبيض لتستعمله غطاءً لرأسها عندما يتطلب الأمر، واكتفى آرام بحمل صندوق خشبي صغير، إلى جانب المطّارة، حدست، في غير تردّد، أنه خبأ فيه مدّخراته، بينما انخرطت أمّي في جمع قليل من الثياب وخبز الرقاق والزبيب والتين المجفّف، وكوّمتها في صُرّة وربطتها على بطن الحمار، وتناولت قربتَي ماء صغيرتين وثلاث مطّارات كتّانيّة، أعطت احدى القِرَب لأبي، ووزعت المطّارات علينا نحن الثلاثة، وحملت هي القربة الثانية.

عانق أبي جارنا راؤول، الذي خفّ لتوديعنا، وتبادل معه بعض الكلمات، ومثله فعلنا أنا وأمّي وزاروهي ونحن نودّع زوجته وبناته.

خرجنا من المنزل قبيل انتهاء المهلة، أسوةً بأهالي سِيفان الأرمن: النساء والأطفال والأولاد والشيوخ والرجال ممّن تزيد أعمارهم عن الخمسين، أما الذين كانوا دون ذلك السن نزولًا إلى الثامنة عشرة فقد كانت تخلو منهم سِيفان، لأن الحكومة ساقتهم إلى التجنيد القسري، بما فيهم دافعي البدل. ولم يكن بميسور النساء والرجال المرضى والطاعنين في السن اجتياز الأبواب الخارجية، فظلوا قابعين في منازلهم، مفوضين أمرهم إلى الله.

دمدم رقيب أول (باش جاويش)، مربوع القامة، ذو شاربين معقوفين، وأنف لم أرَ أقبح منه في حياتي، مخاطبًا أبي:

- لو كان الشأن بيدي لما سمحت لكم أن تركبوا حيواناتنا.

تجاهله أبي، وقال لأمّي:

- هل سمعتِ؟ إنهم يتستكثرون علينا حتى هذا الحمار؟

زعق الرقيب الأول فيه، مهتاجًا، لاويًا فمه:

- ألم يعجبك كلامي؟ ماذا قلت لها بلغتك الخرائية؟

- لا شيء يا باش جاويش.

لوّح بهرّاوته مهدّدًا:

- هل تريد أن أهوي بها على رأسك؟ كيف تكذب وأنت رجل دين؟

- لا أكذب يا باش جاويش، قلت لها إنك تستكثر علينا حتى هذا الحمار.

هرش الرقيب الأول رقبته:

- ولِمَ لا أستكثر؟

- أرجو أن لا تتضايق، أنت مسلم، وما أعلمه أن القرآن يقول والخيل والبغال والحمير لتركبوها.

- وما أدراك أنت؟

- أنا رجل دين أقرأ كل ما يقع في يدي من كتب مقدّسة.

ردّ الرقيب الأول بفضاضة:

- لا تتشاطر معي، القرآن قصد أن نركبها نحن لا أنتم الكفرة الخونة. كان يتعيّن علينا أن نقيّدكم بالسلاسل كالعبيد، لكن اليوزباشي(*) لم يأمر بتزويدنا بها للأسف، وإن شاء الله سنحصل عليها من ثكناتنا في الطريق.

شعرت بالاشمئزاز من ذلك الرقيب الأول القميء، كجرذ هائل الحجم، ذي الأسارير الصارمة التي تجعل القلب واجفًا، وتمنيت لو أستطيع أن أنتزع طربوشه الأحمر وأعفّره بالتراب. أدرت رأسي، وأنا على ظهر الحمار، لإلقاء نظرة سريعة إلى منزل آرشاك، فألفيت بابه مغلقًا كأنما ليس ثمة بشر في داخله. قلت في ذات نفسي «ربما سبقنا أهله، أو أنهم ظلوا مستغرقين في نومهم، ولم يأبهوا لضراوة ما يجري في سِيفان».

---

(*) النقيب.

كنت أعلم علم اليقين أن آرشاك ليس معهم مذ رفض الالتحاق إلى طوابير السخرة، التي كوّنها الجيش لإجبار المسيحيين على تعبيد الطرق، وبناء الجسور، ومدّ السكك الحديد، وانضمّ إلى المقاومة التي يقودها حزب التحالف (الطاشناق)، صحبة مجموعة من الشبّان الأرمن.

عند ناصية الشارع المؤدي إلى وسط سِيفان، غطتنا سحابة دخانية اللون، فتوجهت عيون الجميع إلى السماء. بعد لحظات صار لونها رماديًّا، وبدأ المطر يسّاقط رذاذًا، وراحت قطرات صغيرة تداعب الرؤوس، وتنزلق على الجباه والوجنات في خيوط مثل الدموع. إلاّ أن السحابة لم تلبث أن ابتعدت، وأشرقت الشمس فوق المرتفعات.

استبشرنا خيرًا بالمطر، فهو يمسح ذنوب الأرض كما يقولون، وتمنينا لو أنه استمر وقتًا أطول لينفذ إلى أحشائها.

رأينا، في تلك الأثناء، مشهدًا مريعًا أمام بوابة كنيسة مريم العذراء هزّنا وملأنا غيظًا، كان المشهد عبارة عن دركيّين يضربان بهراوتيهما على رأس قسٍ مقيّد اليدين، وينهالان على بطنه وظهره ركلًا بجزمتيهما، بينما أوثقا ساعور الكنيسة بحبل إلى جذع شجرة.

شهق أبي متألمًا، وقال:

- اللعنة! إنهم يرتكبون إثمًا شنيعًا.

وأطلقت أمّي تنهيدةً، ورسمت علامة الصليب، وسألت:

- ويلتاه! هل هذا أبونا ميناس؟

أجبتها:

- هو بعينه.

كان عسيرًا عليها تمييز الأشخاص عن بعد، بسبب مرض أصاب عينيها تلك السنة، وبينما طفقت تناجي أمّ الإله بأن تذرف الدمع مدرارًا على رجال الكهنوت، قلتُ:

- أما ذاك المجلَّل بالدم الموثَق إلى الشجرة فأحسبه ساعور الكنيسة.

- العم جارو؟

سألت أمّي، وهي تمسح دموعها بظاهر يدها، فأجابها أبي:

- أجل، جارو الطيب الذي أفنى حياته في خدمة الكنيسة.

- يا يسوع، إنه من أشد أهل سِيفان ورعًا وطهارةً.

وصرخ آرام بملء فمه:

- الخاتشكار(*) اختفى أيضًا!

ردّ أبي بصوت مجروح يعتصره الألم.

- أزاحوه منذ أمس يا بنيّ ليخفوا مسحة الجلال والفخامة التي كان يضفيها على سِيفان، لكنه محفور في قلوبنا رمزًا للخلاص.

قبيل أن ننعطف إلى الطريق المؤدية إلى جنوب سِيفان رأينا، عن بعد، شابين يشتبكان بالعصي مع ثلاثة أفراد من الجندرمة المسلحين بالبنادق، وحين دققت النظر إليهما فوجئت

(*) الصليب الحجري.

بأنّ آرشاك كان أحدهما! عقدتْ لساني الدهشة، وتساءلت في سرّي «يا يسوع، ماذا يفعل هنا؟». وما هي إلاّ لحظات حتى أطلق الجندرمة الرصاص عليهما، وأصابوهما إصابات بالغةً، فسقطا مضرّجَين بدمائهما.

شعرتُ بشيء ما يتمزّق في داخلي، وأُضرمت النار في عروقي، ودمعت عيناي. وددت لو أختفي في قعر هاوية، وسمعت أبي يقول بجرس مكلوم «حنانيك يا ابن الله، خفّفْ عنهما آلامهما، وارفعهما إلى وطننا السماوي».

تسللت يدي، لا إراديًا، إلى الخرج ولمست الوردة، لكن بتلاتها الجافة تفتتت بين أصابعي، وسرعان ما سرحت بي ذاكرتي إلى اليوم الذي أهدانيها آرشاك أمام باب منزلنا قائلًا:

- لأنك تعشقين الورود أهديك وردة الأنموروك، وأناديك باسمها من الآن فصاعدًا.

- لماذا هذه الوردة بالذات؟

- لأن لونها البنفسجي ناتج عن اتحاد لونين، وهو يرمز إلى العشّاق ورقة المشاعر والسكينة والهدوء، ويساعد على إثارة الخيال. وأنتِ ماذا تهديني مقابلها؟

- أعرف ماذا يريد العاشق.

تطلعت يمنةً ويسرةً، فألفيت الشارع فارغًا، قلت له «اغمض عينيك»، وحين أغمضهما طبعت قبلةً سريعةً على شفتيه، لكن قبلتي لم تروِ غليله، فلثم شفتيّ بقبلة طويلة عميقة، ثم ولى هاربًا كمن ظفر بكنز عظيم.

## (5)

كانت أُسرة آرشاك، المكونة من خمسة أفراد، تسكن منزلًا قُبالة منزلنا، ذا واجهة مشيّدة بالحجر الأبيض المنقّر، استأجره أبوه مانويل من جارنا راؤول.

عندما نشأت علاقتي به، قبل إبعادنا بسنتين، لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة، على أن كل مَن كان يراه يخاله في العشرين، طويل القامة، بنيته مترعة بعنفوان الشباب، يمتاز بحساسية مدهشة، ويمزج في سلوكه بين الكبرياء والوداعة والطبيعة الجامحة. أحاطني بحب انخطافي نادر؛ منتظرًا بلهفة العاشق الولهان أن يزوّجني أبي منه. وكنت أحسّ بانجذاب قوي إليه، وأراه طلاسم أحلامي، دونه العالم ناقص ومزيّف.

لم يكن من أهل سِيفان في الأصل، وإنما من بلدة بتليس، التي تقع على الضفة الغربية لبحيرة وان، وتعانق الغيوم في الشتاء. نزحت أُسرته من هناك لينأى أبوه بنفسه عن المهانة بعد سلسلة من النكابات التي نزلت به على يد الطورانيين، وأوردته موارد الفقر. إلاّ أنه استطاع، خلال مدة وجيزة في سِيفان، أن يستعيد جزءًا من مجده بقنص الطيور، عمله الأثير إلى نفسه، وبيعها للأثرياء.

كان مانويل يكرمنا ببعض الطيور قبل «السفر برلك»، فنلتذّ بلحمها وندعو له بصيد وفير. لكن ما إن بدأت الحرب حتى جرّدته سلطة سِيفان من بندقيته لئلا يستخدمها في صيد الجندرمة، باعتباره أرمنيًّا معاديًا للسلطنة، فاضطر إلى العمل في مهنة أخرى ضعيفة المورد.

لساني كان يلجم عن الحديث مع آرشاك عندما يزورنا أو نلتقي في الكنيسة. المرة الوحيدة التي انفردنا فيها كانت في عرس أخته أنوشكا. كان الجو يومئذ لطيفًا، فارتديت ثوباً شفافًا يبرز مفاتن الطرف العلوي من جسدي، وحين غادرت الحفل، الذي أقاموه في الباحة الخلفية لمنزلهم، تبعني وسحبني إلى زاوية يسطع عليها ضوء قمر الحصّادين لئلا يخيفني، وفي يده وردة غريبة الشكل تشبه الساعة، ذات بتلات بيضاء، ومآبر بنفسجية يتوسطها ميسم أخضر مصفَر كأنه عمل نحتي. قدّمها لي قائلاً:

- إنها وردة فاكهة العاطفة. أنظري إليها ألا تشبه رقصةً ناعمةً؟

هززتُ رأسي موافقةٌ، وسألته:

- وردة جميلة، من أين جلبتها؟

- أعطانيها فلّاح بستان الآغا. يقول إنها وردة فاكهة لذيذة، ووعدني بأن يذيقني منها عندما تنضج.

كانت عينا آرشاك تبرقان من الشراب، إلاّ أنه لم يكن ثملًا، فهو يشرب في اعتدال كما أخبرتني أخته العروس أنوشكا حين سألتها تلك الليلة، وأنا أراقبه وهو يصبّ النبيذ لأصدقائه، الذين كان يجلس عدد منهم إلى طاولات، ويرقص آخرون حول النار بمصاحبة فرقة مؤلفة من ضاربي الطبل ونافخي المزمار.

سحبني إلى زاوية أخرى لا يصلها ضوء القمر، كامل الفضة، وأمسكني من وسطي وراح يغازلني بكلام يذيب القلب. قال لي إن وجنتيّ أسيلتان بلون الخوخ، وشفتيّ ألذّ من الكرز ملؤهما لحم الشهوة، وعينيّ فيهما ومض سحري. ارتبكت، قلت له «حاذر»، وحاولت التملّص منه «وحياة العذرا دعني أذهب، أخشى أن يأتي آرام، لقد رآني وأنا أخرج»، إلاّ أنه كان منتشيًا ومتلهفًا، منحه النبيذ قوةً جسديةً، فلم أستطع صده، ولم أتمكن من ثنيه عن عزمه بمجرد القوة، وكانت تلك هي الضربة القاضية. تركته على سجيته يفعل ما يشاء، فشدّني إليه وضغط على رمانَتي صدري، وانهال على وجنتيّ وشفتيّ بقبلات مشتعلة نفذ لهيبها إلى أعماقي، وألهبتني أنفاسه، وجعلتني أشعر بأنني أكبر من عمري، وكدت أهوى على الأرض لو لا أنه تلقفني بذراعيه، وأوصلني إلى باب منزلنا، وودعني قائلًا:

- لقد سئمت يا لوسين، اكبري بسرعة، اللعنة على الشرع الذي يحول دون زواجي منك(*).

سألته مازحةً:

- من أين لأبي أن يدفع مهري؟

خطف مني قبلةً وقال:

- أريدك أنت وليس مهرك.

كان في نظرته تصميم يستند إلى شيء في داخله، ونوع من الاعتداد بالنفس جعلني أكثر تعلّقًا به بمرور الأيام.

(*) لم يكن الأرمن الأرثوذكس يجيزون زواج الأنثى قبل بلوغها السادسة عشرة.

## (6)

كان لآرام كلب كانغالي رملي اللون ذو وجه بقناع أسود، سرقه من مربّي كلاب حين كان جروًا لا يزيد عمره عن شهرين، وأسماه «زاديكيان»، وأحاط رقبته بطوق معدني.

عندما غادرنا المنزل أبى الكلب أن يفارقنا من شدّة تعلقه بنا، فتبع القافلة، وراح يسير بمحاذاة الحمار، ويتشمم أقدامنا بين الفينة والفينة كأنه يتوسل إلينا ألاّ نتخلى عنه.

حاول الدركي مرارًا إبعاده، لكنه لم يفلح، وفي آخر مرة ضربه بهراوته على مؤخرته، فاستشاط الحيوان غضبًا ووثب على الدركي، وكاد يسقطه من الحصان، لكن الدركي تمالك نفسه، ونجا من السقوط، على أن جسمه اختضّ وطاح الطربوش عن رأسه، وتطايرت نظرات الهلع من عينيه. ومن لحظتها أقلع الدركي نهائيًا عن المحاولة. كان في ميسوره أن يقتل الكلب برصاصة من بندقيته، ولا أدري لِمَ لم يفعل رغم قسوته.

سألتُ آرام، بعدما قطعت الجموع المهجَّرة مسافةً طويلةً، وأضحت سِيفان خارج مدى النظر:

- ماذا سنطعم زاديكيان المسكين؟ أخشى أن يموت من الجوع.

أدار رأسه ناحيتي:

- لا تخافي، إذا جاع سيفترس الدركي.

- حقًّا؟

تساءلت زاروهي، فردّ عليها آرام:

- أمزح معها، جلبت له في هذا الصندوق ديكًا مسلوقًا ملّحته كي لا يتعفن.

سألتُه مستغربةً:

- من أين حصلت عليه ونحن لم نذق طعم الدجاج منذ عدة أشهر؟

- أتيت به أمس من سطح جارنا راؤول.

- ويلك! ألا تجد غضاضةً في السرقة؟ لا يليق بك أن تفعل هذا. إن الربّ ينفض يده مِمّن يرتكب خطيئة السرقة، ويرميه في الجحيم.

- وهل ثمة جحيم أشدّ من الجحيم الذي نحن فيه؟

- إي، جحيم الآخرة. أنت ترخي قيادك للشيطان.

- فليذهب الشيطان إلى الجحيم. لماذا أكلتِ إذن من الديك الرومي في الكرسمس الماضي؟

- وما علاقة ذلك بالسرقة؟

- تقصدين أن خالي نوبار ذبحه وأعطانا حصةً منه، أليس كذلك؟

- صحيح.

- هل تعرفين من أين جاء به؟

- لا.

- خطفه ابنه من مزرعة.

- لا أصدّق.

- أنتِ لا تريدين أن تصدّقي لأنك أكلتِ منه.

- حتى لو كان مسروقًا فإن الله لن يعاقبني لأني لم أكن أعلم.

- أنا أيضًا لن يعاقبني لأني لم أسرق الديك.

ربتت زاروهي على كتفه وقالت:

- قبل قليل اعترفت بأنك أتيت به من سطح جارنا راؤول.

- أتيت به ولم أسرقه، وجدته ميتًا فأخذته.

قلتُ غاضبةً:

- ومن أباح لك القفز إلى سطح الجيران؟

- كنت على سطح منزلنا فوقعت عيناي عليه، لحظتها فكّرت في أن آخذه لزاديكيان بدلًا من أن يرميه راؤول للكلاب الضالة.

- إن كان ميتًا حقًّا فهو مريض، وإذا أكل منه زاديكيان فسيمرض أو يموت.

- لا تخافي، معدته أقوى من معدة هذا الحمار.

كنا نقذف الكلمات في سرعة وكأننا نتخاصم، ولم يدُرْ في خلدنا أن أبانا يصيخ السمع إلى حديثنا، فأحسّ بشيء من الانزعاج، ونهرنا قائلًا:

- كفاكم هذرًا، لسنا ذاهبين للتنزّه. تضرّعوا إلى الله ليرأف بنا وينجينا من الهلاك.

لزمنا الصمت، وجعلنا أعناقنا تشرئب إلى الأعلى، وشرعنا نتضرّع بصوت مهموس.

## (7)

حكت لي أمّي أن أبي تركها حاملًا بي في شهرها الرابع، والتحق إلى الثوار، الذين كانوا يدافعون عن البلدات والقرى الأرمنية ضد هجمات كتائب الجيش وفرسان الحميديّة القبليين. لكن، رغم شراسة الثوار، اعترضتهم صعوبات كثيرة، فانتصر عليهم الأتراك وأدواتهم الفرسان.

كان انتصارهم مصحوبًا بمذابح جماعية: القبض على مئات النساء، وتقطيع صدورهن، وتمزيق أحشاؤهن كما تمزّق الذئاب غزلانًا مطاردةً، وطعن الأطفال بالسفافيد، واعتقال الرجال وإرسالهم إلى بتليس، وقتلهم هناك، وفصل أطرافهم عن أجسامهم ورميها في نهر دجلة.

أما أبي فقد جُرح في ذراعه، وتمكّن من الفرار مع مجموعة من رفاقه إلى قرية نائية في منطقة ماردين السورية، ومكث فيها ردحًا من الزمن في حماية قبيلة بني محلّم.

انتظرتْ أمّي عودته بصبر جلمودي؛ متأبّيةً تصديق إشاعة مقتله التي روّجها بعض اللؤماء، بل كافحتها إلى آخر رمق. وفي يوم ما رجع إلى سِيفان صحبة رفيقه آبوش، بعد أن هدأت الأمور.

لم يأمنَا دخول سِيفان في وضح النهار، انتظرا حتى يحل الظلام. في البداية ارتقيا التل من طرف القلعة الرابضة في قمته،

ثم انسلا خفيةً إلى داخلها، واختبآ في المسجد الكبير، وعند بزوغ الفجر تسللا إلى الحافة المطلة على سِيفان، وتطلّعا إليها من بين أعمدة الأطلال، وجداها ساكنةً لا يعكر صفوها الجندرمة والفرسان، فهبطا إليها مسرعَين، واتجه كل واحد إلى بيته.

وقتها لم يكن مضى سوى أشهر على رؤيتي النور، كما قالت أمّي، وقد تولّى جديّ هوانيس، والد أبي، تعميدي بعد مرور أسبوع على ولادتي، دون أن أتناول القربان المقدّس، وأسماني لوسين تيمنًا باسم جدّتي التي قضت نحبها في أحد منازل «الهوكيدون»(*)، وهما في طريقهما إلى حِجّ كنيسة القيامة بفلسطين ليشاهدا معجزة قبر المسيح.

لما دلف أبي إلى البيت كان متلهفًا لرؤية بذرته، فحملني بين ذراعيه وأمطرني بالقبلات، وسأل أمّي إن كانت ولادتي سهلةً أم عسيرةً، فأجابته بأنها مثل ولادة أي بِكر. وعندما أعادني إلى حضنها قال مبتسمًا «ما دامت أنثى فأنت ميمونة يا تامار»، ولمس رأسي بباطن كفه، وأضاف «وبما أنها لم تصرخ عندما خرجت من بطنك فإنها ستعيش عمرًا طويلًا».

غير أن أبي، رغم امتلاء قلبه بالفرح، كان يخفي في سريرته حزنًا لم يكشف عن سببه، كما قالت أمّي، إلاّ بعد أن ألحّت عليه في اليوم التالي. قال لها إنه خسر أعز رفاقه الثوار في المعركة، نوبار شقيق القس ميناس، ولولاه لما عاد إليها حيًّا. وروى لها كيف عرّض ذلك الرفيق نفسه للموت كي لا يُحرمه من رؤية وليده البكر. وسمعته أنا بأذني، أكثر من مرة، يذكر لمعارفه أنه يستشعر بجريان دم نوبار في شرايينه.

---

(*) البيت الروحيّ الذي كان يبيت فيه الحجّاج للاستراحة.

# (8)

في سن الخامسة صرت أرافق أهلي إلى قدّاس يوم الأحد. نغتسل جميعًا في الصباح إجلالاً لليوم المقدّس، ونمضي إلى الكنيسة مشرقين بالإيمان.

في كل مرة كنت أصرّ على أخذ شمعة معي لأضعها جنب الشموع الموضوعة أمام أيقونات يسوع والعذراء. لم يعترض كاهن الكنيسة يومًا ما، بل كان يبتهج، ويقول لي إنني مسيحية شديدة الإيمان واللطف، وإن العذراء تمنح بركاتها لكل من يشعل شمعةً من أجلها، فتغمرني السعادة، وأشعر بالزهو.

لم أتصور أنني سأُنتَزع من ذلك العالم البهي وأُرمى في عالم غير عالمي. كنت أعتقد، وأنا في ذلك العمر الصغير، بأن محبتي ليسوع ستجعلني في منأى عن الهلاك. لكنْ حدثَ ما حدث ولم تكن له إرادة في ذلك، إنما كانت إرادة الشياطين الطورانيين، وسيكون للربّ شأن معهم في الآخرة. أنا واثقة من ذلك.

كان منزلنا مبنيًّا من الحجر، يتألف من بهو مربّع ذي نافذتين، تطلان على شجرتي رمّان ومشمش، ويفضي إلى مطبخ ليس واسعًا ولا ضيقًا، وغرفتين للنوم، يشغل والداي إحداهما والثانية لنا، أنا

وآرام وزاروهي. وكانت للمنزل باحة مكشوفة، مصفوفة بالحصى، يتوسطها بئر نستخرج منها ما نحتاجه من ماء للشرب والاستحمام والغسيل وسقي الشجرة، ولها سور حجري وباب خشبي، وفي ركنيها حمّام ومراحيض، ومستودع صغير كنا نودع فيه حاجاتنا الضرورية.

حكى لنا أبي أن شجرة الرمان غرسها جدي هوانيس وأنا ابنة أربعة أشهر. جلب شتلتها من بستان آغا جنوب سِيفان، وفي العام الثالث نشأت تثمر.

كانت أمّي تعتني بالشجرة كثيرًا، وتلقمنا من حبات ثمرتها عندما نُصاب بالإسهال، أو نعاني من مغص معوي، قائلةً إنها تقتل الديدان الشريطية. وأحيانًا كانت تَعدّ من عصيرها حساءً (رمّانيةً) نلتذ بحموضته. أما قشر الرمان المجفّف فكانت تغلي مسحوقه مع أعشاب النعناع والزنجبيل والكمون، وتضيف إلى الخلطة ملعقة عسل صغيرةً لتحصل على مشروب قوي تستخدمه علاجًا لبعض مشكلاتها الصحية. وكانت شجرة المشمش تضفي في بداية الربيع لمسةً خلابةً على باحة المنزل، بلحائها المزركش، وأوراقها الداكنة الخضرة، وورودها التي يتداخل فيها الأبيض والزهري المائل إلى الحمرة، وحين تنضج ثمارها الذهبية في الصيف تحثنا أمي على الإكثار من تناولها؛ قائلةً إنها أفضل علاج للوقاية من الأمراض الجلدية وبثور الشباب.

لم تكن عندنا أَسرّة خشبية أو حديدية، كما عند أغلب الناس الآن، ننام على حشايا نمددّها على الأرض في الليل، ونلفها في الصباح ونركنها في زاوية من زوايا الغرفة.

أحيانًا كانت تتسلل إلى غرفة النوم، لا أدري من أين، حشرات قارصة، وتلسع أطرافنا، فيصرخ أحدنا أو ثلاثتنا معًا، وتهبّ أمّي من نومها وتأتي مسرعةً لتهدئتنا بحكايات مسلية، تُفتننا بطريقة سردها.

بعد مدة صرنا نسأم من تكرار تلك الحكايات، وأخذنا نطلب منها أن تقصّ علينا حكايات جديدةً، فتضطر إلى الاستعانة بمخيلتها لخداعنا بحكايات مختلقة، إلاّ أننا كنا نقهقه بسبب ما يتخللها من هفوات، حيث كانت أمّي تعجز عن حبك أحداثها، وتنسى بعض أسماء شخصياتها، أو تغيّرها دون أن تنتبه.

كانت قهقهاتنا بالطبع تثير غضبها، وتجعلها تفتح عينيها على وسعهما وتنعتنا بالشياطين، ثم ترغمنا على الخمود، وتعود إلى حضن أبي.

دخلتُ المدرسة الحكومية في عمر الثامنة، وكنت أرغب في التعلم بمدرسة البنات، التي أنشأها المبشّرون الأميركان مع مدرسة ثانية للبنين، غير أن بُعدها عن بيتنا حال دون تحقيق رغبتي.

ليتني دخلت تلك المدرسة لأتعلم اللغة الإنجليزية، مع أن الجيش العثماني صادر بنايتيهما في ما بعد، وحولهما إلى ثكنتين عسكريتين عندما أعلنت السلطنة النفير العام، وشاركت في الحرب.

كان التعليم مختلطًا يجمع البنات المسلمات والمسيحيات واليهوديات، واللغة المستخدمة هي العثمانية، والكتابة بالأحرف العربية. في البدء استعصت عليّ كتابتها، حتى أن أمّي، التي لم تكن

تغفر لي أية هفوة، يئست مني، وأضحت تقول لي «لن تفلحي، خير لك أن تتركي المدرسة وتساعديني في شغل البيت». كان كلامها يؤلمني كثيرًا، إلاّ أنه زادني إصرارًا على التعلم، فنجحت أخيرًا في العام الثاني من المرحلة الرشدية (المتوسطة)، وشعرت بالسعادة كأني تخلصت من حمل يثقل كاهلي، وتماهيت مع دروسي، رغم رداءة خطي، الذي لم يتحسن إلاّ قبل نحو ثماني سنين عندما صرت أذهب إلى المدرسة رفقة أختي سلطانة، ابنة مربيتي جوري الشمّرية.

# (9)

كانت سلطانة في عمر التاسعة عندما دخلت المدرسة الخزامية في باب لكش بالموصل، متأخرةً ثلاث سنوات عن قريناتها، أيام المجاعة (سنة الغلاء) التي ضربت الولاية نتيجة لانكسار العثمانيين في حربهم مع الإنجليز، بينما كنت أنا في الثامنة عشرة، وكانت مديرة المدرسة حمدية خانم مصطفى تجيز لي حضور الدروس معها.

لم أجد صعوبةً في قراءة ما كان يُعرض عليّ من كتابات بالعربية الفصيحة، إلاّ أنني كنت أعجز عن فهم معاني الكثير منها، مع أني تعلمت اللغة التي يتكلم بها العرب، وأنطق بها بصفاء كامل، وكدت أنسى لغتي الأرمنية لولا حرص أمّي جوري، التي كانت تسّميني «مليكة»، على اختلاطي بالأرمن الناجين من الهلاك.

حين أُنشئتْ مدرسة رشدية في العام التالي التحقت إليها، فتحسّن مستواي في قراءة الدروس العربية وفهمها يومًا بعد يوم، وأكملت تعليمي في المدرسة باسمي الحقيقي، ثم انتقلت إلى معهد المعلمين فرع البنات، وتخرجت فيه بعد ثلاث سنوات حاملةً شهادةً خوّلتني التعيين بوظيفة معلمة في مدرسة ابتدائية، لكني لم أقدّم طلبًا للتعيين.

أتذكّر، حين كنت في المعهد، أن صديقتي سالي جلبت معها ذات يوم جريدةً اسمها «العهد»، وقالت لي «اقرأي هذا الخبر». كان عنوانه «طالب أرمني يغتال طلعت باشا الصدر الأعظم السابق في الإمبراطورية العثمانية».

صعقني العنوان فمضيت في قراءة تفاصيل الخبر «أطلق طالب أرمني يُدعى صوغومون تيهليريان، يوم الثلاثاء الماضي، النار على طلعت باشا، الصدر الأعظم السابق وحامل الختم السلطاني في الإمبراطورية العثمانية، أمام منزله في برلين عاصمة جمهورية ألمانيا. واعترف الطالب، البالغ من العمر 24 عامًا، باغتيال المجرم طلعت باشا. وبعد محاكمة استغرقت يومين أصدرت المحكمة قرارها النهائي: صوغومون تيهليريان بريء ولم يرتكب أي جرم، وأفرجت عنه. وتشير معلومات نشرتها جريدة ألمانية إلى أن كاهنًا أرمنيًّا زار تيهليريان في السجن الذي كان موقوفًا فيه، وأولى الكلمات التي قالها كانت «باسم الربّ يسوع المسيح أباركم لأنكم قتلتم المجرم وحققتم ثأرنا جميعا». وكان طلعت باشا يُنظر إليه بوصفه المدبر الرئيسي للإبادة الأرمنية الجماعية. وعقب استقالته ووزارته أصدرت جمعية الاتحاد والترقي والمركز العمومي قرارًا بنفيه، مع باشوات آخرين، إلى خارج البلاد، وإزالة رتبه ونشاناته الباشوية. لكنه هرب إلى سيفلس توبال عبر البحر الأسود بسفينة ألمانية، ومن هناك ذهب إلى برلين».

ملأني الخبر غبطةً، فهتفت، لا إراديًّا:

- يحيا البطل وتحيا العدالة الإنسانية. أقسم بالعذرا إن تزوجتُ وجاءني ولد لأُسميه صوغومون تيمّنًا باسمه.

## (10)

كان درس التاريخ العام في المدرسة الرشدية بسِيفان، إلى جانب الرسم، أقرب الدروس إلى نفسي، لأن معلمتنا زابيل لم تكن تلتزم بالمنهج الرسمي لوزارة المعارف، المكرّس لتاريخ بني عثمان وأمجاد سلاطينهم وباشواتهم، بل كانت تخرج عنه، أحيانًا، وتروي تاريخ شعبنا الأرمني، قائلةً إنه أول شعب اعتنق المسيحية، وتعرّض خلال حقب مختلفة إلى الاحتلال والقمع والتهجير، وكان أجدادنا قد أسسوا قديمًا ممالك عظيمةً. وفي احدى المرات تملكت زابيل الجرأة فقالت إن الاسم الحقيقي للأرض التي نسكنها هو أرمينيا الغربية، وعندما احتلها العثمانيون في القرن السادس عشر غيروا اسمها لكي يمحوا هويتها ويذوّبوها في هويتهم، لكنها ستبقى جزءًا مقتطعًا من أرض أرمينيا التاريخية. ولم يمضِ يومان حتى استدعيت المعلمة إلى إدارة المعارف في البلدة، بوشاية من طالبة تركية، وأُنذرت بالفصل من وظيفتها إذا كررت مثل هذا الكلام.

لا أدري ماذا حلّ بمعلمتي خلال أيام النفي السوداء؟ عسى أن تكون من الناجين، لكن من يضمن أن الوحوش لم يغتصبوها ويعلقوها عاريةً على مشنقة كما فعلوا مع الكثير من النساء؟ كانت

شابةً عزباء ناصعة القلب، جميلةً يزداد جمالها يومًا بعد يوم، ذات عينين عسليتين تظللهما أهداب طويلة، وقوام ممشوق صلب، يشق الهواء وهي تمشي كالرمح، شخصيتها مؤثرة وحيوية تجذب كل من تتحدث إليه.

حين كانت تنهي حصتها في الصف تحيط بها التلميذات إحاطة السوار بالمعصم ليسألنها عما يدور في أذهانهن، فتردّ عليهن باقتضاب، دون أن تفارق الابتسامة وجهها. كانت فاتنة تأخذ بمجامع القلوب، وتوقع الدوّار في رؤوس شبّان سِيفان، إلاّ أنها لم تلقِ بالًا لأحد منهم؛ ظلت عازفةً عن الزواج؛ ناذرةً نفسها لخدمة أبيها المقعد بعد موت أمّها.

أتذكّر، إلى أبعد ما تسعفني الذاكرة، أنها زارتنا مرتين، الأولى عندما أخبرتها بأن أمّي تلحّ عليّ أن أترك المدرسة. وفدت لتقول لها إن ما تفكّر به خطأ كبير، فلستُ وحدي مَن يعاني من صعوبة التعلّم، وإنما هناك بنات كثيرات مثلي، ولن يطول الأمر حتى أتغلّب على المشكلة. والثانيةً لما تعثرتْ أمّي بالثلج في باحة الدار ووقعت على بطنها، وفقدت جنينها. يومها كانت حاملًا في شهرها الثالث، فخسرنا فردًا كان سيضاف إلى الأُسرة.

عرفتْ معلمتي بالحادث في اليوم الثاني، بسبب تخلفي عن الذهاب إلى المدرسة يومين متتاليين، فأتت صحبة معلمة الحساب كلاديس، أم صديقتي مريم، وشدّت على يد أمّي، وحثّتها على اجتياز المحنة بالجَلد والتحمّل، وأكّدت لها أن بطن المرأة مثل البستان تؤتي ثمرها على الدوام، والبركة في ما أنجبت.

يا يسوع كم كنت أحبّ معلمتي زابيل. كانت إنسانةً نادرةً في لطفها وعلمها وخصالها.

تولعتُ بالرسم في الصف الثالث الابتدائي، وكنت أرسم الأشياء التي تجذبني، أو التي تراها عيناي جميلةً في الطبيعة كالأشجار والطيور والأنهار والجبال المكسوة بالثلوج، أخطّطها أولًا على الورق بقلم الرصاص، ثم ألوّنها بأقلام الباستيل. لا أدعي أنني كنت رسامةً ماهرةً، على أن معلمة الرسم الست بهيجة كانت تقول إنني أرسم أفضل من زميلاتي في الصف، وغرست في ذهني فكرة إكمال تعليمي في مدرسة الفنون با لقسطنطينية .

بقيت الفكرة تدور في رأسي، رغم كونها مغشيةً بالضباب، ولم أُطلِع أهلي عليها لأن أبي كان يريدني أن أخدم في الكنيسة، وأساعد الخوري في الأمور التي تخص النساء، وأوزع الإحسان على الأرامل، ولا يتوانى عن تذكيري بـالقديسة «فيبي» شمّاسة كنيسة كنخريا في اليونان، التي تحدث عنها القديس بولس في رسالته إلى أهل روما. لكن ما آل إليه مصيرنا حال دون دراستي للرسم، كما حال دون أن أصبح شمّاسةً.

يومَ اقتلاعنا كنت في الصف ما قبل الأخير من المدرسة الرشدية. كل صباح كانت تأتي صديقاتي في الحي ويصطحبنني معهن. في الطريق القصيرة كنا نغني أغاني أرمنيةً شعبيةً تتحدث عن القهر، لا لشيء إلاّ لنعزز شعورنا القومي، ونتحدى الطورانيين الذين يحاولون إلغاء وجودنا.

# (11)

«الرحمة يا رب».

صاح أبي بصوت عميق عند دنوّ القافلة إلى شعفة أول تل في طريقها. كان حينها قد فضّل هو وأمّي السير خلفنا لنكون أمام ناظريهما. ظننت أول وهلة أنه يستنجد بيسوع كي يشفع لنا وينقذنا من المحنة، إلاّ أنني عندما أدرت رأسي رأيت أمّي مرميةً على الأرض، ولا أثر لقربة الماء التي كانت تحملها. تجمدت عروقي وصرخت في داخلي «يا إلهي، لقد خذلتها قدماها وخارت قواها من شدة التعب».

قفزت من على ظهر الحمار، تعثّرت ووقعت على مؤخرتي، نهضت وهرعت إليها، ورفعت رأسها عن الأرض ووضعته على فخذيّ، وانخرطت في بكاء مكتوم تحت لثامي لئلا يسمعني أحد من الجندرمة. أما أبي فقد برك على ركبتيه، وصار يحرك أمّي يمنةً ويسرةً ويضغط على صدرها وينفخ في وجهها، لكنها لم تأتِ بأية حركة. كان جسدها شديد البرودة كأنها خرجت توًّا من ماء مثلّج.

أدركَنا آرام، وهبّ زاديكيان خلفه نابحًا؛ مستشعرًا بغريزته

أن بلاءً ما أصابنا. طفق آرام يقبّل قدمَي أمّي، ويتوسل إليها بأن تنهض، غير أن الدركي نغز أبي في ظهره بأخمص بندقيته وأمره بتركها ومواصلة السير. عندئذ بكى أبي بصمت، غامت عيناه في طوفان دموع، وانحنى وطبع قبلةً على جبينها، وراح يتلو تعاويذ الانتقال السرمدي، فأثار في نفسي رعشةً تقبّض منها كياني، ثم رسم إشارة الصليب ونهض كسيرًا، وقادنا على عجل، كأنه يخشى علينا الفرار، لنلحق بزاروهي. رفعَنا واحدًا بعد الآخر إلى ظهر الحمار، الذي أوشك أن يبلغ شعفة التل، وسحبه من رسنه، كاظمًا في داخله ألمًا لا يشعر به إلاّ الله.

بعد برهة أدركت أنني لن أرى أمّي ثانيةً، فوثبت وجريت صوبها، وتبعني زاديكيان، إلاّ أن أبي لحق بي وسحبني بحزم من ذراعي وهو يقول بعصبية، لكن بصوت خافت، «اعقلي يا لوسين، هل تريدين أن يطلق الدركي النار عليكِ؟ إنه أخرق وسيفعلها إن لم تعودي»، ثم خاطب زاديكيان بأن يتبعنا، إلاّ أن الكلب أبى أن يترك أمّي، ظلّ ينبح عند رأسها، ثم ما لبث أن يئس وتبعنا وقد تغير نباحه إلى ما يشبه العويل.

رفعني أبي إلى ظهر الحمار، وأخذ يسير محاذيًا له، وقد أشتدّ به الكرب. أثارت تنهداتي وطريقة نباح زاديكيان أختي زاروهي، فسألت أبي:

- لماذا ينبح زاديكيان هكذا؟

لم يأبه لها أبي، بقي صامتًا يرسل نظراته إلى شعفة التل، وحين كرّرت السؤال استدار إليها وقال:

- لا شيء، إنه متألم فقط لأننا فارقنا سِيفان.

كانت في عينَي أبي سحابتان تترقرقان، فلم تقتنع زاروهي بكلامه، أدارت رأسها إلى الخلف كمن يبحث عن شيء، وسألته:

- أمّي! أين أمّي؟

ردّ عليها في حُنوّ:

- لا تجزعي يا ابنتي، تأخرت قليلًا وستلتحق بنا.

لكن زاروهي خطر ببالها أن أبي يخفي عنها الحقيقة، فمدت ذراعها إلى الخلف ومسّت بيدها ركبتي وقالت:

- لوسين، هل كلام أبي صحيح؟

أردت إسكاتها، فقلت وأنا أغالب دموعي:

- عيب يا زاروك، خليق بك أن تصدقي كلام أبي.

تردّد في صدرها صوت نشيج خافت وقالت:

- أنتِ أيضًا تخفين عني الأمر.

استنجدَتْ بآرام:

- وأنت يا آرام، ألن تخبرني ماذا جرى لأمّي؟

عندئذ أدرك أبي أن لا مفرّ من مصارحتها، فأمسك بيدها وقال:

- أنت مسيحية مؤمنة يا زاروهي، وتعلمين أننا جميعا ماضون إلى ملكوت الربّ لنهنأ بسرور مقيم، فهناك مآلنا.

فزعت زاروهي:

- هل ماتت أمّي؟ هل قضت نحبها؟

- على رسلك يا ابنتي، الربّ أعطى والربّ أخذ، فليكن اسم

الربّ مباركًا. طوبى لها، لقد استجابت لنداء السماء، فسبقتنا في الانتقال إلى أخدارها.

إلاّ أن زاروهي أجهشت بالبكاء، فأزحتُ وشاحها عن رقبتها وأعطيته لها كي تمسح به دموعها، وتناول أبي المطّارة منها، وصبّ قليلًا من الماء في كفيها لتغسل وجهها، وراح يسكّنها:

- اهدئي حبيبتي، لا جدوى من البكاء، إنه يُغضب الربّ، وتضرعي إلى البتول لأجل أمّك، لأجل أن تشفع لها عند ابنها فيغفر برأفته خطاياها.

## (12)

لن أنسى ما حييت الصوت الشجي لصديقتي مريم، التي كنا نناديها مريميك تحببًا. كانت أكبر مني بعامين، ذات وجه مشرق مفعم بالحيوية، تزيّن شعرها الأشقر بشريطين أحمرين يتدليان فوق أذنيها ويتراقصان مع الريح.

شجّعها أبوها عازف «الدودوك» الماهر على الغناء حين اكتشف أن صوتها عذب، كأنه صوت طائر الورشان (حمامة الغابة)، أو صوت ملاك يوقظ الحواس، وصار يعزف لها في حفلات أعراس أهل سِيفان والمناسبات الدينية، وحبّب إليها ألحان الكاهن كوميتاس، الذي جال، متخفّيًا، أكثر من عشرين عامًا في العديد من القرى، وجمع مئات الأغاني الشعبية من أفواه القرويين وصاغها وقدمها في شكلها النهائي.

كان كوميتاس يسجّل بقلمه تلك الأغاني من حوله، لذا أطلقوا عليه تسمية «النوتجي». ويُقال إنه كان يبقى وحيدًا في غرفته الفارغة، ويعيش حالةً من الحلم بين تدفق الأنغام وعذوبة الأصوات.

رأيته مرةً واحدةً في بيت مريم، قبل إبعادنا بسنة، عندما

وفد بدعوة من أبيها ليسجّل بعض الأغاني التي يحفظها مغنٍ شعبي من بلدتنا. وكم أفجعني نبأ إصابته بفقدان العقل إثر إبادة عدد من أفراد أُسرته ومعارفه في مسقط رأسه كوتاهيا.

سمعت ذلك من سيدة أرمنية في كنيسة الأرمن المقدّسة على صلة قرابة به. تذكّرتْه تلك السيدة حين عزف «أورغانست» شاب على أرغن ضخم بالكنيسة لحنًا شهيرًا من ألحانه في الأحد الأول من الصوم الكبير، وحدثتها عن تشرّفي بلقائه ذات مرة وأنا في الرابعة عشرة، فبدت عليها أمارات الانشداه وسألتني:

- هل أنتِ من مُهجَّري كوتاهيا؟

قلت:

- لا، أُسرتي من الشرق، لكني التقيته عندما زار بلدتنا.

- طوبى لكِ، هل صافحتِه؟

- لا.

- لعلك تحدثتِ إليه؟

- لا.

- ولم يُقدّر لك الاختلاط به؟

- لا، لم أحادثه ولم أختلط به، ولم أصافحه، جلست على مقربة منه فقط وهو يصغي إلى مغنٍ من أهل البلدة، ويدوّن أغانيه على الورق.

- إي، هذا ما كان يفعله في تجواله بين القرى والبلدات الأرمنية. اغفري لي إلحالي في الأسئلة، لن أقول شيئًا آخر.

- إنه يذكّرني بصديقة عزيزة كانت تغني بعضًا من أغانيه، ولا أدري ماذا جرى لها، وهبها الله حنجرةً كأنها قُدّت من بلور نقي.

- لا تحزني، ما دام قد وهبها تلك الحنجرة فهو كفيل بإبقائها حيةً.

- أتمنى ذلك، مع أن ما شاهدته من أهوال في قافلة المُبعَدين يجعلني أشك في بقائها حيةً.

- لا تتشائمي، ها أنت حية، ويُحتمل أن تكون هي حيةً أيضًا.

- أنا أنقذتني الصدفة، وليت مصيري لم ينفصل عن مصير أهلي.

- أف أف أف! هل قضى جميع أهلك نحبهم؟

- قصتي طويلة سأرويها لك ذات يوم، وتروين لي قصة نجاتك.

- مع مَن تعيشين إذن ما دمت وحيدةً؟

- مع أمي الثانية.

- هل كان أبوك متزوجًا قبل زواجه من أمك؟

- لا، أقصد مربيتي التي هي بمنزلة أمي.

- لا بد أنها مهجّرة من بلدتكم أيضًا؟

- لا، إنها من أهل الموصل.

- لماذا لا ترافقك إذن إلى القدّاس؟ يبدو أنها ليست أرمنيةً؟

- ولا حتى مسيحيةً.

- أهي مسلمة؟

- إي مسلمة، عربية بدوية.

- يا أبانا الذي في السماوات! ألم تحاول إقناعك بالتخلي عن ديانتك؟

- بالعكس، حثتني على الاختلاط بالأرمن وحضور القدّاس كل أسبوع.

- طوبى لها، إنها امرأة نادرة.

- أرأيتِ لماذا هي أمي الثانية؟

- أعرف بعض الأرمنيات اللواتي تزوجن شبّانًا مسلمين فأصبحن مسلمات بعد حين.

- لا أظن أنهن أُكرهن على ذلك.

- ما دمت تعيشين في بيت مسلم، ألم يعرضوا عليك الزواج؟

- عرض عليّ بعضهم، لكني لم أستجب.

قالت بصوت فيه شيء من التضرّع:

- باسم الآب والأبن والروح القدس, أنت فتاة جميلة، ربّنا يستر عليك، وابني في سن الزواج، أكبر منك قليلًا، شاب طويل القامة معافى، طيب ولذيذ جدًا، ما رأيك في أن تتعرفي إليه؟ إنه خارج الموصل الآن وسيعود قريبًا. مَن يدري، ربما تقتنعين به.

ذكّرتني جملة «شاب طويل القامة معافى» بآرشاك، إلا أنني قلت بجرس بارد:

- اعذريني، لا أفكّر في الزواج الآن.

شعرت المرأة بالخيبة، وغادرت الكنيسة ممتعضةً، كأنني وجهت لطمةً إلى كبريائها.

ظلّت مصيبة جنون كوميتاس عالقةً في رأسي لا تتزحزح طوال ذلك اليوم، ومن شدة تأثري بها لاحظت أمّي جوري علامات الحزن باديةً على صفيحة وجهي، فظنّت أنني واجهت مشكلةً ما في الكنيسة، أو أن أحدًا تحرّش بي في الطريق، رغم علمها أن من شبه المستحيل تحرّش الشبّان في الطرقات والأسواق بالمسيحيات واليهوديات والأيزيديات، فهم يعاملونهن مثلما يعاملون أخواتهم. غير أنها شاركتني حزني حينما أطلعتها على النبأ الذي نقلته لي السيدة.

ما أروع جوري من أمّ، لا أستبدلها بكنوز الدنيا. عوّضتني عن حنان أمّي تامار، وربتني أحسن تربية، حتى أنها أسمت حفيدتها ريمة من ابنتها سلطانة نزولاً عند رغبتي في تسميتها باسم صديقتي مريم. ولم يكن زوجها وابن عمها الشيخ محمود أقل منها حنانًا وحرصًا عليّ، فقد كان لا يتوانى عن مصاحبتي، في سنواتي الأولى معهم، إلى الكنيسة، وينتظرني في المقهى حتى أفرغ من القدّاس، وعندما بلغت مبلغ النساء في سن العشرين أجاز لي الذهاب وحدي.

كان الشيخ محمود أكبر إخوته، من عائلة كريمة، ميسور الحال، إلى حد ما، يكره العثمانيين كره العمى، مثلما يُقال، لأنهم جندوا اثنين من أبنائه الأربعة في الحرب، ولم يعد أيّ منهما، فقد قُتلا في معركة مضيق الدردنيل، ولفظ البحر جثتيهما، كما انتزعوا منه أرضًا ثمينةً في أطراف الموصل، وحولوها إلى معسكر للتدريب.

حلمت ذلك اليوم حلمًا مؤلمًا، كانت مريم رفقتي على ساحل بحر شاسع، نغني ونحدّق إلى غروب الشمس، وسمعنا، فجأةً، صوتًا يأتي من خلفنا، وعندما أدرنا رأسينا رأينا الأب كوميتاس يسير صوبنا حافي القدمين، مشعث الشعر، ينفخ في بوق يصدر صوتًا أشبه شيء بالنحيب، يتبعه جمع من الجندرمة؛ رافعين في الهواء بنادق ذات حراب مشرعة تحمل جماجم. ابتعدنا عن المكان قليلًا وصرنا نراقب المشهد.

حين بلغ كوميتاس البحر، المعبّأ بنفايات السفن والقوارب الراسية، توغل في الماء، واستسلم لأول موجة تغمر جسده، وشرع الجندرمة ينتزعون الجماجم من حرابهم ويلقون بها في الماء، فراحت تطفو على سطحه مثل كرات مطاطية، وسرعان ما أحاطت بها أكاليل زهور مضاءة بقناديل ملونة انبثقت من أعماق البحر.

عجبت من ذلك الحلم، وعزوته إلى انشغال ذهني بالمصير المفجع الذي انتهى إليه كوميتاس العظيم.

# (13)

لم أرَ السيدة التي التقيتها في الكنيسة مرّةً أخرى لأحكي لها الحلم، فقد سافرتُ رفقة أمّي جوري إلى كركوك لرؤية صديقتي سالي، التي رحلت أُسرتها إلى تلك المدينة منذ سنة ونصف السنة، إثر حصول أبيها على وظيفة في متصرفية اللواء.

كانت سالي أقرب صديقاتي في الموصل، ناصعة البياض، يكاد جمالها يضاهي جمال معلمتي زابيل، لا تفارق الابتسامة وجهها المشرق، متسقة الملامح، ذات أنف مستدق، ونظرات مهيبة، ووجنات بديعة تطفح حمرةً، وكأن رسّاماً محترفًا استنفذ وقتًا طويلًا في رسمها. كلدانية تتحدث لغتها الأم بطلاقة، جاء والدها روفائيل ميشو إلى الموصل من بلدة تلكيف للدراسة، وأقام في دار عمه، وتزوج أمّها، وتنقّل بين وظائف عديدة لم تعجبه كلها، فشدّ الرحال إلى كركوك، وهو في سن الخمسين، بمشورة قريب له وجد له وظيفةً محترمةً هناك، وبعد مدةً وجيزةً تمكّن من تعيين سالي معلمةً.

في يوم من الأيام أحبت سالي أن تصحبني معها إلى بيت جدّها ميشو في تلكيف، الواقعة على مسافة قصيرة شمال شرق

الموصل، في أرض منخفضة محاطة بالهضاب. عرّفتني هناك إلى عمها راعي كنيسة قلب يسوع الأقدس. كان كاهنًا مثقفًا واسع الاطلاع، يختزن ذهنه معارف كثيرةً في التاريخ والأدب والجغرافية والعلوم. حين تجلس أمامه تشعر بأنك في حضرة موسوعة. يعشق الجدل والشعر، ويحفظ عن ظهر قلب مئات الأبيات من قصائد الغزل والحكمة لشعراء عرب وكلدان.

حدّثني الكاهن الموسوعي على انفراد عن بلدة تلكيف قائلًا:

- معناها باللغة الآرامية «تل كيبا» أي تل الحجارة، وكانت من أكبر القرى المسيحية منذ القرن السادس عشر. كنيستنا قلب يسوع الأقدس من أهم معالمها، شُيّدت على انقاض كنيسة قديمة وصغيرة تدعى كنيسة مار قرياقوس الشهيد، قبل خمسة عشر عامًا. ومنذ مطلع القرن قامت الكنيسة بتعليم اللغة الكلدانية واللغة العربية ومبادىء الحساب وأصول الدين، حتى فُتحت عام 1919 أول مدرسة حكومية رسمية. لا أدري إن كانت سالي قد أخبرتك بأن أغلب سكان البلدة من الكلدان، يليهم الآثوريون والعرب والإيزيديون.

- إي، أخبرتني.

- هل ذكرت لك شيئًا عن تلّها؟

- لا أبونا.

- إنه الآن مقبرة، لكن لم يكن كذلك قبل القرن التاسع عشر، بل كان تلًّا أثريًّا يعود إلى عصر الأدوار الآشورية والأكدية، والدور المعروف بطبقة نينوى الخامسة من بداية الألف الثالث قبل الميلاد،

اشتهر بفخارياته المميزة، ويحوي بقايا يعود زمنها إلى عصر الوركاء وعصر العبيد، وربما إلى عصور أخرى أقدم.

في الحقيقة أنا أتذكّر الآن هذه المعلومات التي سمعتها من الكاهن لأنني دونتها على ورقة في ذلك الحين، ولا أدّعي اختزانها في ذاكرتي بعد مرور ثلاثة أعوام على لقائي به.

# (14)

رغم جمال سالي، لم يحالفها الحظ في إيجاد الرجل الذي تحلم بمواصفاته حتى أوان زيارتي لها. كانت كثيرة الاعتداد بنفسها، وتضع اشتراطات ليس من اليسير تحقيقها. على أنها خفّفت من تلك الاشتراطات حين بلغت الثلاثين وتزوجت.

من أعجب ما حدث خلال تلك السفرة مفاجأة سالي لي بأن صديقتي مريم حيّة، وتسكن في كركوك. وقع عليّ الخبر كدلو ماء بارد في يوم شديد القيظ. قالت إنها تعرّفت إليها صدفةً قبل أشهر في الكنيسة، فهتفتُ غير مصدّقة:

- يا أبانا الذي في السماوات! حقًّا ما تقولين؟

- أجل، وأخبرتها بأنك حيّة أيضًا، وتربطني بك صداقة حميمة مذ كنا ندرس معًا في معهد واحد بالموصل.

كانت سالي تعرف مدى حزني على مريم، فقد كنت أحكي عنها دائمًا وكأنها أختي زاروهي.

اخضّلت عيناي بالدموع من الفرح، وطلبت منها أن تأخذني إليها حالًا، لكنها قالت:

- لا أعرف عنوان بيتها بالضبط.

- يا مريم العذراء! كيف لا تعرفين؟

- قالت إنها تقيم مع زوجها في حي يسمى شاطرلو.

- ياه! ومتزوجة أيضًا؟ أين يقع شاطرلو هذا؟ هل هو بعيد؟

- إي، إنه بعيد عن القلعة.

- هل تعرفين موقع بيتها؟

- لا، للأسف.

- ولا أحدًا من سكّان الحي؟

هزّت رأسها نافيةً.

- كيف إذن سألتقيها؟

- بعد غد في كنيسة أمّ الأحزان.

- أهي كنيسة أرثوذكسية؟

- لا، إنها كنيسة كاثوليكية، لكنّ مريم تحضر رفقة زوجها الكلداني إلياس.

- زوجها كلداني؟ هل تواظب على حضور القدّاس؟

- إي، إنه من جماعتنا، تأتي كل أحد معه، رجل مهذب جدًا يكبرها بأربعة عشر عامًا.

- يا يسوع القربان يا مخلّص! كم تخبئ لنا الحياة من مفاجآت؟ كنت أحسب أن مريم واحدة من ضحايا النفي.

- هكذا هي الحياة، أحيانًا تخبئ مفاجآتٍ سارةً لا تخطر بالبال، وأحيانًا تخبئ مفاجآتٍ لا تروق لنا.

بقيت ذلك اليوم أتخبّط في رسم صور مختلفة لمريم في ذهني، تارةً أتخيّلها كما رأيتها آخر مرة، وتارةً أخرى أتخيّلها بوجه شاحب، لا شبه بينها وبين صديقتي مريم، شعرها قصير من غير بريق، وعيناها تفتقران إلى النضارة، وفي أذنيها أقراط من الخرز، وتارةً ثالثةً أتخيّلها بهيئة امرأة حامل يشبه وجهها رغيف خبز محمّص، وتتسربل في لباس فضفاف يخفي بطنها المنتفخة.

# (15)

حين شارفت شمس أول أيام النفي إلى الغروب، أوقف الجندرمة القافلة في بقعة أرض خصبة، مرعى واسع تكاثفت فيه الحشائش، يخلو من العمران والأشجار، وأجازوا لمن به حاجة إلى التبول والتغوط بالابتعاد قليلًا عن المكان، شريطة أن يبقى تحت أنظارهم.

كانت تنتصب في البقعة، يا للهول، صلبان وأوتدة متراصة، على بعد مسافة قصيرة تتيح لنا رؤيتها بالتفصيل. كانت على الصلبان نساء عرايا مسمّرات، يشبهن الفرَاشات، تحلّق فوقها الغربان، بينما كانت الأوتدة مكللة برؤوس آدمية، تبدو مثل فزّاعات طيور، لم تخلّف العقبان أي أثر من آثار اللحم عليها.

في تلك الأثناء كان يمرّ من تحت الصلبان قطيع خراف يتقدّمه مرياع(*)، ويسير خلفه راعٍ في عمر آرام، يصاحبه كلب أبلق، وهو يعزف على نايه نغمة المراح، من غير أن يتطلّع إلى النساء العرايا، وكأنه اعتاد على رؤيتهن كلّ يوم.

(*) كبش يُعزل عن أُمّه يوم ولادته، ويُسقى حليبها دون أن يراها في أول أيامه، ثم يوضع مع أتان ليرضع منها، فيعتقد بأنها أُمّه، وبعد أن يكبر يُخصى، ولا يُجزّ صوفه حتى يكون ضخمًا ذا هيبه، وتُعلّق حول رقبته الأجراس الرنانه لزيادة هيبته، فإذا سار تبعه القطيع.

«يا للفظاعة»!

صاح أبي مصدومًا، ثم أضاف:

«لا أشك في إنها من ابتكارات حقي باشا».

وقال رجل يسير أمامه بحنق:

«تبًّا لهؤلاء الوحوش! هل يعرفون الله؟ هل لديهم ذرة من دين؟».

واستغاث رجل آخر، بصوت متهدّج:

«يا ابن الله، يا واهب الحياة، إنهم يفعلون بنسائنا مثلما فعل بك أعداؤك».

وعاطت امرأة في منتصف العمر، ثائرة الأعصاب:

«يا أمّ الإله، إنهن عذارى مغتصبات»!

أثارت رؤية المصلوبات والجماجم قشعريرةً رهيبةً في أبداننا، وملأت نفوسنا هلعًا. وإمعانًا في ترويعنا أبلغنا الجندرمة بقضاء الليل في تلك البقعة، وحذرونا تحذيرات صارمةً «لا تتحركوا من أماكنكم، ولا يحاول أحد منكم الفرار تحت جنح الظلام، لأن أية محاولة ستُحبط فورًا، وإذا كان مرتكبها ذكرًا سوف نفصل رقبته عن جسده، وإذا كانت أنثى سوف يكون لنا شأن آخر معها، أما الذي يفلت، وهو أمر مستحيل، فسيقع في قبضة كتائب الجيش والفرسان المنتشرة في كل بقاع السلطنة. إنها كتائب مدربة تستطيع الإمساك حتى بالطير.. مفهوم؟»، ردد المنفيون بصوت واحد «مفهوم أفندم».

استخرج أبي بعض الخبز والتين المجفّف من الصُرّة المربوطة على بطن الحمار ووزّعه علينا. ازدردناه مع جرعات ماء من غير نفس، وقدّم آرام لكلبه قِطعًا من الديك المسلوق، فأكلها على كره أيضًا.

كان شعوري بالفجيعة المركبة يفوق شعور أُسرتي: وفاة أمّي من جهة، ومقتل آرشاك من جهة ثانية، ومرأى النساء المعلقات على الأعمدة من جهة ثالثة. كيف لا وأنا المجبولة على عاطفة مفرطة كانت موضوع تندر دائم بين زميلاتي في المدرسة. لقد هدّمت أحداث ذلك اليوم حلمي في لمحة بصر، وأصابتني بجرح جعل قلبي يقطر ألمًا، وغرست فيّ إحساسًا عميقًا بشؤم مقبل.

لم يأبه بعض الفتيان في القافلة ليلتها لتحذيرات الجندرمة، ففرّ بتشجيع من ذويه، آملًا في العودة إلى سِيفان، أو إلى بلدات قريبة، وقد رأيت بأمّ عينيّ كيف استغل اثنان منهم انشغال الرقباء بثُلّة نساء جروهنّ عنوةً إلى داخل العربات، وزحفا على ظهريهما منتصف الليل، وابتعدا عن المكان. كانا أخوَين يفترشان الأرض على مقربة منا. خلّفا أُسرَتهما المكونة من ستة أفراد وغامرا بحياتهما. وجاشت في نفسي أمنية أن ليت أخي آرام فرّ معهما، رغم شكّي في أنه يستطيع الإفلات من الجندرمة، كما أن أبي لن يسمح له بالفرار، وهو ولده الوحيد، خاصةً بعد أن فقدنا أمّي.

في تلك الساعة كانت عيناي مفتوحتين، بينما كنا، أنا وزاروهي وآرام، مندسين في أكياس النوم على بطانية سحبها أبي من ظهر الحمار، وفرشها على الأرض، وجلس على حافتها يستمع

إلى رجل خمسيني أنمش، ذي وجنتين بارزتين من النحول، يبدو من مظهره يائسًا، وعاجزًا عن الابتسام، وله نظرات تشي بأنه عانى كثيرًا في حياته.

كان الرجل يسعل بين حين وآخر، وهو يروي ما سمعه من قصص عن إعدام المئات من الأرمن في ساحات القسطنطينية، منهم قادة وكتّاب ورجال دين. ثم حوّل نظره، على حين غرة، جهة العربات وقال في شيء من الأسى:

- أظنهم اختاروا اللواتي من غير أزواج، أرامل أو مطلقات، ولو كنّ متزوجات لقاومهم أزواجهن حتى الموت.

رسم أبي علامة الصليب:

- لن ينالوا إلاّ غضب الله، فلا ظالمون ولا خاطفون ولا زناة ولا فاسقون ولا مأبونون يرثون ملكوته. ذلك ما يقوله بولس الرسول.

- أخشى أن يأتي الدور غدًا على البنات الأبكار.

بدت تلك الجملة لأبي أشبه بضربة عصا غليظة على الرأس، لذلك قال في عصبية:

- لا أريد التفكير في هذا الشأن، هل لك أن تكفّ عنه وتعود إلى حديثك السابق؟

تنحنح الرجل:

- سأكفّ، سأكفّ، على أن نسيانه يحتاج إلى دامجانة(*) خمر تثملني وتنيمني.

---

(*) دنّ من زجاج بين القنينة والبرميل.

- غريب أمرك. إن إذهاب العقل بالسكر خطيئة.

زمّ الرجل شفتيه:

- ليس في مثل هذه الحال يا أبانا.

- اسمع إذن هذه الحكاية، عندما غرس أبونا آدم الكرمة، وفد الشيطان وذبح عليها طاووساً، فشربت دمه، ولما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه، ولما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، ولما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، ولذا فإن شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة، وذلك أنه أول ما يشربها وتدبّ في أعضائه يزهو لونه، ويُحسَن كما يُحسَن الطاووس، فإذا جاء السُّكر لعب وصفّق ورقص، كما يفعل القرد، وإذا قوي سُكره جاءت الصفة الأسدية، فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه، ثم يتقعّص مثل الخنزير، ويطلب النوم وتنحلّ عراقوته.

أفلت الرجل غليونه من يده، وصاح بصوت حانق:

- فلتنحل وتذهب إلى الجحيم، إنها ليست أغلى من نسائنا اللواتي يُغتصبن الآن.

لمس أبي ذراع الرجل وقال له:

- اهدأ، الناس حولنا نيام.

أحس الرجل بشيء من الخجل، فدمدم بصوت متقطع:

- سأهدأ، سأهدأ. يا الله كيف فاتني أن أجلب زجاجة عرق؟! هل أحضرت معك قربةً من شراب الملوك؟

- شراب الملوك؟! أي شراب هذا؟

لعق الرجل شفتيه كقط:

- النبيذ الأحمر، ألا تعلم أنه كان يسمى بهذا الاسم في العصور الغابرة؟

ردّ أبي متهكّمًا:

- لا أعلم، ولم يخطر ببالي أننا ذاهبون في رحلة ترفيهية.

- لكن حاجة المرء إلى الخمر في الأيام العصيبة أشدّ من حاجته إليه في الأيام الهانئة.

- بماذا تشعر حينما تسكر؟

- يا الله، أشعر بشيء عظيم. يسري الخمر في أطرافي مسرى خفيًّا مكتومًا فأشعر بأنني ملك تدنو لي الأرض والسماء، الأرض تنبسط وتنبسط، وتنفصل المسافة بينها وبين حافة الأفق، دون أن تهتز أو تزلزل، والسماء تنخفض وترتفع، تنخفض وترتفع دون أن تتناثر كواكبها ونجومها.

- يا لك من صاحب خيال مريض! لا أدري من أين تستحضر هذه الحماقات، يبدو لي أنك شخص لا سبيل إلى إصلاحه.

قهقه الرجل باستخفاف، وتساءل مستغربًا:

- هل هذه حماقات يا أبانا الكاهن؟

- لست كاهنًا، بل مساعد شمّاس.

- أيّا تكن رتبتك، إن ما وصفتَها بالحماقات ليست سوى هواجس وأفكار.

- سمّها أنت ما شئت، إلاّ أنها بالنسبة لي حماقات، ولا أدري من أين تستحضرها!

- أنا لا أستحضرها، بل تنبزغ من تلقاء نفسها مثل الفطر، تنبثق من الواقع فألتقطها من غير عناء.

- الواقع؟ إن بعضًا مما نحسبه واقعًا مجرد وهم.

- لا يا أبانا، الواقع نعيشه ونلمسه بحواسنا، وهذا الذي نحن فيه الآن أقسى أنواع الواقع، أما الأوهام فهي تخيّلات زائفة تصدر عن عقول مريضة، أتظن أنني مريض؟

لم يحر أبي جوابًا يردّ به على الرجل، فظل صامتًا، ومن جانبه لم يفه الرجل بكلمة إلا بعد أن خرجت النساء من العربات، مشعثات الشعر، ومضين منكسراتٍ إلى آخر القافلة.

نام آرام وزاروهي سريعًا، وبقيت أنا سارحة البال، فكّرت قليلاً بما كان يحدث لي لو أنني كنت واحدةً من تلك النساء، ثم رحت أفكّر تارةً في أمّي وجدّتي وآرشاك والنساء المصلوبات، وأستذكر تارةً أخرى صديقاتي، خاصةَ مريم وسيرفارت وهوري، وفي داخلي أمنية أن أحظى برؤيتهن في القافلة.

غفوت قبيل بزوغ الفجر، وسرعان ما حلمت حلمًا مريعًا، رأيت فيما يرى النائم أنني أسير خلف المُبعَدين تحت شمس ساطعة، لا أُسرة لي كأني مقطوعة من شجرة. وما هي إلاّ لحظات حتى دهمني دركيّان، وكمّما فمي بخرقة، وحملاني إلى غابة يكسو أرضها عشب كثيف. أزالا الخرقة وخلعا ثيابي بسرعة، اجتاحني الرعب وجفّ حلقي، توسلت إليهما أن يتركاني، إلاّ أنهما أبيا. مدّداني على بطني، وعادا فقلباني على ظهري، ووضعا طربوشيهما على العشب، وتجردا من ملابسهما. أحسست ببرودة العشب الذي رطّبه ندى الليل

تتسرب إلى مسامات جلدي، وتشق طريقها إلى عظامي، بينما كانت أعماقي تغلي كالمرجل. غطيت صدري بذراعي اليسرى، ووضعت يدي اليمنى بين فخذيّ، لكن الدركيّين، اللذين بدوا لي مثل بهيمتين متوحشتين، أزاحا ذراعي، وأخذا يعتصران نهديّ، ويلعقان رقبتي بنهم. ثم شدّني أحدهما من شعري، الذي استطال في الحلم، وأقعى الثاني عند قدميّ، وفرج بيديه الخشنتين بين ساقيّ.

كانت مثانتي ملأى، ولم أستطع السيطرة عليها، فتدفقت نافورة البول رغمًا عني، ورشّت وجهه القبيح، الشبيه بحبة بطاطة متعفنة، وانحدر السائل من جبينه إلى ذقنه وصدره، ومن صدره إلى العشب. غير أنه لم يكترث، وكأنه استقبل رشقة ماء، وجثم فوقي وطفق يغتصبني بعنف وهو يعوي مثل ذئب.

لم تسترئفه صرخاتي التي كانت تفلق الصخر، بل تجاهلها ومضى في افتراسي. ولما انتهى حذا شريكه حذوه، وكان أكثر خسّةً ووحشيةً من فرط الهياج، فقد أطلق العنان لمخالبه أن تنشب في لحمي، وأوغل في جسدي؛ مطلِقًا أصواتًا مشينةً، كأنه لا يريد مغادرته، إلى أن صار يلهث وهو يبذل جهدًا خارقًا لـيبذر نبتته الشيطانية في داخلي، وتأوه بغتةً، وغمغم بشيء، وزمّ شفتيه، وارتمى على ظهره منهدًّا، في حين كنت أنا أتجرّع عذابًا رهيبًا.

في النهاية حزمني النذلان إلى جذع شجرة صنوبر بحبل كتان، وولّيا على عقبيهما، وحثا خطاهما مبتعدَين عن الغابة، ومضيا صوب القافلة، كأنهما لم يرتكبا شيئًا، وتلاشيا في لمح البصر؛ تاركَين إيّاي وحيدةً، عزلاء، أئنّ من الألم، وأهمر الدموع.

أعتمت الغابة، على حين غرّة، وتحول لونها إلى زرقة مخيفة، كأن الشمس أطبقت أجفانها وخبا نورها.

أيقظتني ضربة قوية على ظهري من كوع زاروهي، ففتحت عينيّ مفزوعةً، وتسللت يدي لا إراديًّا تحت سروالي، فشعرت ببلل في أطراف أناملي جعل الدم يسكن في عروقي. سحبت يدي على الفور وقربتها إلى أنفي، «حمدًا للعذراء، إنها رائحة عرق وليست رائحة دم» قلت لنفسي، ورفعت رأسي ورحت أتطلع حولي.

كان الوسن يعكر عينيّ فلم أر شيئًا عدا قمر مشع في سماء الليل، وسرب من الحباحب المضيئة التي تتقافز، في غاية الخفة، على شكل أقواس فوق الأجساد النائمة. حاولت النهوض، لكن أبي انتبه إلى حركتي، فتمتم ببضع كلمات، وأعادني في رفق إلى مضجعي، ومسّد بيده على هامتي، وقال لي «نامي بسلام يا ابنتي»، وشرع يترنّم ببعض الآيات ليهدّئ من روعي. عندئذ تيقنت من أنني كنت أحلم.

أشعر الآن بالقرف من تلك الليلة، والأسوأ من ذلك أنني حاولت كثيرًا أن أتجاوز سخفها وأنساها، لكنني لم أفلح. ويمكن أستخلاص نتيجة حاسمة منها: إن مّن يرى كوابيس من هذا النوع في ريعان شبابه لا يستطيع أن يمحوها من ذاكرته طوال حياته، فكيف بي وأنا لا أزال في السادسة والعشرين؟

## (16)

- هذا زوجي إلياس.

قالت مريم؛ مستسلمةً لفيض دموعها، بعدما تعانقنا وتبادلنا القبلات. وحين مددّت يدي لمصافحة زوجها أضافت:

- إنه من الناجين أيضًا، من بلدة بتليس، ويجيد الأرمنية.

خفق قلبي، وسألت إلياس:

- لكنك لست أرمنيًّا فلماذا نفوك معهم؟

- كنّا بضع أُسر كلدانية هناك غير مرغوب فينا. خشينا أن يشملنا قرار النفي بتهمة التعاون مع الروس أيضًا، فرحلنا إلى ولاية الموصل بإرادتنا قبل بدء تسفير الأرمن، ثم استقرينا هنا في كركوك.

- ما دمت من بتليس هل تعرف شخصًا اسمه آرشاك؟

- أعرف أكثر من شخص بهذا الاسم، ما اسم أبيه وعائلته؟

- مانويل فاروجان.

- مانويل فاروجان؟ إي أتذكّره جيدًا.

قال إلياس، وصمت هنيهةً، ثم استرسل:

- كان شابًّا طويلاً ووسيمًا، وكان أبوه صياد طيور بارعًا، إلاّ أن

العثمانيين جردوه من بندقيته فارتحل عن بتليس. كانت شطارته في الصيد محطّ إعجاب الكثيرين، يخرج في الصباح بعربته التي يقودها حصان أبيض، ويعود قبيل المساء ظافرًا بكُركيّين أو ثلاثة مع مجموعة من طيور الحجل والدرّاج، ويبيعها إلى اللحّام، فينظفها هذا الكائن الجشع ويبيعها بدوره إلى أغنياء البلدة بأضعاف الثمن الذي دفعه لفاروجان.

قلت له:

- كان جارنا، ويتكرّم علينا في أوقات متباعدة بشيء من صيده.

- ألذلك تسألين عن ابنه؟

تأوهت وأجبته:

- قتلوه أمام عينيّ يوم اقتلاعنا من سِيفان.

اغتمّ وجه مريم، وأدار إلياس رأسه صوب أيقونة يسوع داخل الكنيسة، ورسم علامة الصليب، ثم سألني، من غير أن يرنو إليّ:

- وماذا حلّ بأُسرته؟

قلت بصوت واهن وكأني أناجي نفسي:

- لا أدري، لا بدّ أنها كانت في القافلة، لكني لم أعرف ما صار إليه أمرها.

ذهبت كل تخيّلاتي عن مريم سدى. لم أجدها على أيٍّ من الصور التي رسمتها لها، كانت لا تزال تحمل قسماتها القديمة، مع أن طولها ووزنها ازدادا قليلًا، وأصبح حاجباها رفيعين، وهي تزيّن عنقها بسلسلة ذهبية تنتهي بصليب.

استفسرت منها عن أُسرتها، فلزمت الصمت، واتشح وجهها بغلالة حزن. غير أنها قالت بعد ثوانٍ:

- أمي وخالي ماردیك على قيد الحياة.

- وسيرانوش؟

- قالت أمّي إن الجندرمة باعوها لعصابة قُطاع طرق، ولم يُعرف مصيرها حتى الآن. كان من الممكن أن تنجو لو أن الدركي اللعين أفلتها مثلما أفلتني في احدى المدن على الحدود السورية.

- ما أسوأ بختها!

- خمّن عدد من الناجين أنها ربما قُتلت مع البنات اللواتي قُتلن بعد اغتصابهن.

- يا ويلتاه!

- كان أفراد العصابات يشترون المُبعَدات، ظنًّا منهم أنهن يخفين ليرات ذهبيةً في فروجهن أو ابتلعنها، ثم يقتلونهنّ، ويبقرون بطونهنّ وأرحامهنّ بحثًا عن تلك الليرات.

- أخشى أن تكون أختي زاروهي قد واجهت المصير نفسه.

- هل فقدتِ أنت أيضًا أختك؟

هززت برأسي، فتساءلت مريم:

- وماذا جرى لأبيك وأخيك آرام؟

- إنها قصة طويلة سأحكيها لك في ما بعد.

ساد الصمت بيننا لحظات، ثم كسرته متسائلةً:

- هل تزوجتِ إلياس عن حب مع أنه ليس أرمنيًّا؟

- إنها قصة طويلة أيضًا ستعرفينها لاحقًا. يا الله! لم يخطر ببالي أننا سنلتقي يا حبيبتي لوسين. حدثيني عن نفسك، هل ما زلتِ مولعةً بالرسم؟

- لا، هجرته مذ نفونا، وأنت هل ما زلت تهوين الغناء؟

- ليس كما عهدتني، مع أن إلياس يطرب لصوتي، ويطلب مني أحيانًا أن أغني له صحبة الكأس ونغمات الدودوك.

- مريميك، ما هذا الذي أسمعه؟ هل صرتِ تجيدين العزف على الدودوك؟

ضحكت مريم ضحكةً خفيفةً، وأشارت إلى إلياس قائلةً:

- هو العازف ولست أنا.

- حقًّا؟ ما أروعكما إذن! لكن قولي لي بصدق، أيهما أفضل عزفًا أبوك أم إلياس؟

تأوهت وقالت:

- أبي طبعًا. ألا تتذكرين أنه كان عازفًا محترفًا وماهرًا؟

- بلى أتذكّر.

- أما إلياس فإنه هاوٍ فقط.

عندما خرجنا من الكنيسة دعتنا مريم، أنا وسالي وشقيقها سيمون، إلى بيتها، فقبلت الدعوة دون تردد، لكن إلياس ارتأى أن يجول بنا، أولًا، في أزقة القلعة وشوارعها الملتوية، وحدثنا قائلًا إن أغلب سكانها من التركمان والكلدان واليهود، وهي قلعة أثرية شُيّدت قبل الميلاد بقرون عديدة، في عهد الملك الآشوري آشور

ناصربال الثاني، لتكون حصنًا دفاعيًا أمام هجمات الأعداء. ثم مررنا من أمام جامع يُعرف بـ»جامع النبي دانيال»، ومبنى آخر هو ضريح لأميرة أذربيجانية اسمها «بغدة خاتون»، يحوي قبةً زرقاء ذات شكل مثمن فريد الطراز.

بعد أن أتممنا جولتنا، قادنا إلياس عبر البوابة التي دخلنا منها حين قصدنا الكنيسة، وهي بوابة كبيرة مطلة على نهر «الخاصة» تسمى «طوب قابو»، قبوها شبه بيضوي، وسقف مخرجها على شكل قوس مدبّب. هبطنا درجًا طويلًا إلى الشارع المحاذي للنهر، الذي لا يزيد عرض الماء العكر فيه عرض جدول صغير، وينتشر على ضفته المواجهة للقلعة باعة أدوات زراعية ودواجن وبيض وخضار وفواكه وجوز وألبان.

استأجر إلياس ربلًا(*)، يقوده حوذي في العقد الستيني من عمره، يعتمر «چرّاويّةً»(**)، ليقلنا إلى حي شاطرلو عبر الجسر الحجري الذي يربط بين شطري المدينة الكبير والصغير. رحّب بنا الحوذي في بشاشة، وقال «اسمي رؤوف جومرت، يعرفني أغلب أهل كركوك»، ثم طفق يغني بلغته التركمانية، ويهزّ طرفه العلوي طربًا. أدخلت الأغنية السرور إلى نفوسنا، واندمجنا معها، وشرعنا نترنم بلحنها ونصفّق على إيقاعها دون أن نعرف كلماتها. انتعش

(*) عربة يجرّها حصان أو حصانان، ولها سقف يغطي الراكبين ليحفظهم من المطر في فصل الشتاء، وحرارة الشمس في فصل الصيف. كانت تسمى عند دخولها إلى العراق «عربة لندن» كونها إنكليزية الصنع.

(**) غطاء رأس تقليدي يتكون من طاقيةً قطنيةً بيضاء يُلف حولها شماغ أبيض/ أسود ثلاث لفّات.

الحوذي، وأراد أن يغني أغنيةً ثانيةً، لكن نوبة سعال دهمته، فلم يستطع مواصلة الغناء. عندئذ صرت أتطلّع إلى الشارع الرئيسي في المدينة، الذي يسمونه «شارع السراي». لم أجد اختلافًا كبيرًا بينه وبين شوارع الموصل، تقطعه عربات تجرّها حمير وأكاديش محمّلة بأكياس حبوب وشالات قطن، وعلى الأرصفة عدد قليل من النساء المبرقعات، اللواتي يغطين أجسادهن بعباءات سوداء، وهن يتسوقن أدوات منزليةً من باعة البسطات، وبضعة شرطيين، وجنود يعتمرون عمائم هنديةً، ويعلّقون بنادق طويلةً على أكتافهم، ورجال كثيرون ينهمك بعضهم في أعمال حدادة أو نجارة أو بيع الغرابيل والحبال والخيزران وأدوات الزراعة داخل محلّاتهم، فيما يجلس آخرون بجلابيب محلية مختلفة على أرائك خشبية، يحتسون الشاي أمام المقاهي، ويشفطون دخان النارجيلات والغلايين.

انعطف الربل إلى زقاق ذي منازل واطئة يربط بين شارعين رئيسين، وتتوسطه قناة مكشوفة تنساب فيها مياه عادمة، ويتجمع فيه مجموعة صبيان يلعبون «الصـگلة»(*). اضطر الحوذي، الذي ظل يسعل، على نحو متقطع، إلى إيقاف الربل، ونهرهم ملوّحًا بالسوط ليفسحوا للربل بالعبور، إلاّ أن الصبيان واصلوا لعبتهم غير مكترثين به. اضطر الحوذي إلى الترجّل، مدمدمًا، وراح يسوط الهواء فوق رؤوسهم، فدبّ الخوف في نفوسهم وتنحّوا جانبًا.

---

(*) لعبه يلقي فيها الصبي حصوات مصقولة على الأرض، ويأخذ احداها ويقذفها إلى الأعلى، ويلتقط ثانيةً ويقذفها، وفي الوقت نفسه يمسك الأولى قبل سقوطها على الأرض، وهكذا دواليك إلى أن ينهي قذف جميع الحصوات.

سألت إلياس، بعد أن اجتاز الربل الزقاق إلى شارع عريض إلى حد ما، عن طبيعة عمله، أجابني بأنه موظف في شركة أجنبية للتنقيب عن النفط، ثم حكى لنا عن حدث فظيع وقع قبل فترة في منطقة بابا گُرگُر، التي تقع فيها الشركة، قائلًا «حفرنا أول بئر فتدفق منه سائل أسود غزير غزارةً عظيمةً؛ مرتفعًا نحو 60 قدمًا فوق البرج القائم عليه، وحين ازدادت ضراوته صار سيلًا لا سبيل إلى كبح جماحه، سيلاً اقتحم الأودية السحيقة، ولم نتمكن من سد فوهة البئر إلاّ بعد ثمانية أيام، وانتشرت من السائل رائحة كريهة مثل الجيفة تركت أثرًا في صحة العمال وسائر الأهالى المجاورين، وأدى تدفقه الجنوني إلى مقتل ثلاثة مهندسين أمريكيين واثنين من العراقيين».

لاحظ إلياس علامات التعجّب على وجوهنا فأضاف «إنها ثروة كبيرة للبلد، وبعد مدة سيكون بمقدور الميسورين استخدام السيارات في تنقلهم، مثل أقرانهم في بغداد، بدلًا من هذه الربلات».

كان الحوذي يصغي إلى إلياس بانتباه، فالتفت إليه وكحّ في عمق، وقال حانقًا:

- هذه ليست ثروة، بل فضلات أرواح شريرة كانت محبوسةً في باطن الأرض وهؤلاء الكفّار سهّلوا خروجها. لعنة الله عليهم، يريدون أن يقطعوا رزقنا.

قال ذلك ورفع سوطه، وهزّه في الهواء هزةً ماكرةً، وضرب به الحصان على ظهره ليحثه على الجري بسرعة.

ردّ عليه إلياس:

- لن ينقطع رزقك.

# مريم

كنّا أنا وسيرانوش معرّضتين للاغتصاب في الطريق، شأننا في ذلك شأن الكثير من الصبايا، غير أن أمّي رأت أن طوق النجاة الوحيد هو رشوة أحد الرقباء بما كانت تمتلكه من مصوغات ذهبية. وبالفعل حافظ علينا حتى وصولنا إلى مدينة نصيبين. كنا، إذا تتذكّرين، في ذيل القافلة، فاستغل الرقيب انحرافها إلى شارع ملتوٍ، ونزّلني بسرعة من ظهر البغل. ظننت أنه سينزّل سيرانوش أيضًا، لكنه لم يفعلها. وقع بصري على باب موارب لمنزل متهالك، فدلفت من فوري إلى داخله.

فوجئ صاحب المنزل، وهو جالس على بساط من اللباد، وأمامه سماور نحاسي صغير يغلي فوقه إبريق شاي، فنهض في الحال، بملامح تنضح اضطرابًا، وهرول إلى الباب الخارجي، وألقى نظرةً إلى الخارج ثم أغلقه. لا بد أنه أدرك، بفطنته، أو بسبب رؤيته وجهي مخطوفًا، أنني بنت دخيلة. كنت في غاية الارتباك والخوف، وحين عاد كلّمني بلغة لم أفهم منها شيئًا. شعرت بأنني في ورطة وكأن قدميّ غاصتا في الرمال، فوضعت إصبعي على شفتي السفلى،

ثم وجهته إليه، ولوحت بكفي، كما يفعل البُكم، إشارةً إلى أنني لا أجيد لغته. عندئذ أومأ بيده إيماءةً خمّنت منها أنه يسألني عن اللغة التي أتكلمها، فدمدمت:

- أرمن، ترك.. أرمن، ترك.

وإذا به، من حسن حظي، يجيد التركية:

- اطمئني، أنت في أمان هنا. من أين جئت يا ابنتي؟

تنفست روحي الصعداء، وأجبته بإيجاز وصوت خفيض:

- هربت من قافلة المُبعَدين الأرمن التي مرّت من أمام منزلكم قبل قليل.

- ألم يلمحك أحد أفراد الجندرمة؟

- كلا يا عمّي لا تخف، كنت في آخر القافلة فرأيت بابكم مواربا، وأندفعت داخلةً أسرع من رمشة عين.

قال على مهل:

- الحمد لله. أدخلي البيت إذن لتتعرّفي إلى النساء وتستروِحي وتأكلي مما هو مقسوم لك.

كان الرجل عربيًّا تقيًّا ووقورًا، اسمه ياسر الشرابي، يعمل إمام مسجد، عنده ابنتان شابّتان، جاءتا إلى الدنيا بعد ولدين توفيّ أحدهما بالملاريا، وتوفيّ الثاني بالتهاب رئوي، كما قالت البنت الكبرى. عشتُ تحت حماية زوجته وابنتيه بضعة أشهر، خفّفت عني شيئًا من تقليب المواجع، ومما فات وانقضى.

تبنّاني، في ما بعد، زوجان كلدانيان ليس لهما خلفة.

احتضناني ثمانية أعوام، وقدّما لي الرعاية، وأرسلاني إلى مدرسة الأبرشية، فأصبحتُ ابنتهما، مع أنهما كانا يشقّان حياتها بصعوبة في ذلك الزمن الأعجف، زمن الشدة والعُسر.

كان الزوج هرمز، الذي صرت أناديه أبي، في عمر خالي تقريبًا، عطوفًا، دافئًا، متوّجًا بالبشاشة، وجد فيّ البنت التي طالما حلم بأن تنجبها له زوجته، إلاّ أن حلمه لم يتحقق.

لم يسبق لي أن سمعت باسم تلك المدينة، الواقعة على سفح جبل، وبمرور الأيام علمت أنها كانت تحت حكم الأرمن في القرن الأول الميلادي. أحببتها كثيرًا، وتركت فيها ذكريات لا تُنسى على شاطئ نهرها «الجغجغ»، المأخوذ اسمه من اللفظة الأرمنية «جغجخوت».

حين بلغت سن الرابعة والعشرين تعرّفت، ذات يوم شتائي، إلى إلياس، الذي يرتبط بصلة قرابة بعيدة مع أبي هرمز. ما زلت أتذكّر ذلك اليوم، كان يوم أربعاء، وكانت السماء محملةً بسحب رمادية ثقيلة تنذر بمطر غزير، لم تظهر الشمس طوال ما انصرم من نهار. وفدَ إلياس من كركوك، قاطعًا في رحلته مسافةً طويلةً، ليقتفي أثر خاله الذي قدِم إلى المدينة بحثًا عن كنز عهد به أبوه إلى أحد معارفه، ولم يعد إلى أهله رغم مضي تسعة أشهر. قضى إلياس أيامًا عديدةً وهو يسأل ويبحث عن خاله، بمساعدة أبي، فلم يعثر عليه.

عندما رأيته، أول مرة، قدّرت أن عمره لا يزيد عن الثلاثين بعامين أو بثلاثة. في البداية تولّد بيني وبينه نوع من الإلفة، كنت أغنّي له فتنزاح عنه همومه، ويكلّمني بلسان عذب سائغ، ثم أخذ

قلبي ينزلق إليه يومًا بعد يوم طوال المدة التي أقامها في نصيبين، وبالمقابل امتلأ قلبه بهواي، واعترف لي بأنني عوّضته عن إحساسه بالخيبة المريرة التي ولدها فشله في العثور على خاله، وجعلته يعدل عن فكرة عدم الاقتران بامرأة أخرى عقب وفاة زوجته.

ذات مرة باغت إلياس أبي بطلب يدي منه، من غير أن يخبرني بنيّته. فرح أبي وكأن طلب إلياس حمل إليه نسمةً من الراحة، وكنت أعتقد بأنه على علم بالعلاقة الغرامية التي حصلت بيننا، فزوجته (أمّي أربينا) لم تكن تخفي عنه أي شيء يتعلّق بي. لكن بما أن الأصول تقتضي أن يستطلع الأهل رأي ابنتهم عندما يتقدّم أحد لطلب يدها، فقد استمهل أبي إلياس حتى يطرح عليّ الموضوع. وعندما أجبته بالموافقة ملكته البهجة، وتسرّبت إلى كل أساريره. عانقني، مهنئًا، وتمنى لنا حياةً زوجيةً هانئةً، وشرع ينصحني ويبيّن لي، كما لو أني ما زلت في نظره صبيةً، أن الحياة الزوجية ليست بالأمر اليسير على الإطلاق، فكثيرًا ما يواجه الزوجان عقبات وتحديات تعكر صفو حياتهما، إلاّ أنهما يستطيعان تخطيها بقدرتهما على التفاهم.

استقبلت نصيحته بابتسامة رضا، وطبعت قبلةً على جبينه، فتعاظمت غبطته، وأسرع إلى خزانته واستخرج منها زجاجة نبيذ معتقةً كان يخفيها ليوم استثنائي، ودعا أمّي أربينا وإلياس، وفتح الزجاجة، وسقانا أنخابًا بالمناسبة.

ولما حان وقت مجيئنا إلى كركوك أصرّ هو وزوجته، على مرافقتنا ليحضرا حفل زواجنا.

## (17)

سألتُ مريم:

- كيف عثرت على أمّك وخالك؟

قالت:

- بفضل إلياس.

- يا أمنا العذرا! أين حدث ذلك.

- في جمعية خيرية أرمنية ببغداد. سمعت بوجودها من عم إلياس عقب زواجي بثلاثة أشهر. جاء من بغداد لزيارتنا، وعندما علم بقصة أهلي أخبرني بأن تلك الجمعية تمتلك سجلًّا باسماء وعناوين معظم الأرمن الناجين الذين وصلوا إلى العراق، فرافقه إلياس، وقضى وقتاً طويلًا في مراجعة السجل حتى عثر على اسم أمّي وخالي، ومن حسن الحظ أنهما كانا يقيمان في بغداد. بقيت أنتظره، بفارغ الصبر، طوال فترة غيابه، وبعد أسبوعين فاجأني باصطحابهما إلى كركوك، لكن من دون سيرانوش.

اختلطت في داخلي مشاعر متناقضة، أأفرح لمرأى أمّي وخالي أم أبكي غياب سيرانوش؟

غالبت هواجسي وأنا أقبلهما:

- لماذا سيرانوش ليست معكما؟ أهي حية يا أمّي؟ لا تخفي عني شيئًا بحق العذرا.

شهقت أمّي بالبكاء، وحين كفكفت دموعها قالت:

- لا أعرف شيئًا عنها. بعدما اجتزنا نصيبين أرغمها رقيب نذل على النزول من ظهر البغل، بإشارة من رئيسه، وضمّها إلى مجموعة بنات سلّمهن لعصابة قُطاع طرق لا أعرف ملّتها، كان أفرادها يرتدون خليطاً من الأسمال الجبلية والفلاحية. توسلت بالرقيب الذي أعطيته مصوغاتي الذهبية أن يعيدها، لكنه لم يأبه لي.

- هل تظنين أنهم قتلوها؟

- الله أعلم يا ابنتي. قيل لنا حين بلغنا مدينة دير الزور السورية إن رجال عصابات عثمانيين كانوا يقتفون أثر السوقيّات ليشتروا الفتيات، ظنًّا منهم أنهن ابتلعن ليرات ذهبيةً، وكانوا يقتلونهنّ، ويشقّون بطونهنّ وأرحامهن بحثًا عن تلك الليرات.

- يا يسوع المخلّص! ماذا كان سيحدث لو أن ذلك الرقيب الحقير نزّلها معي؟

- حظنا العاثر يا حبيبتي.

رسمتُ علامة الصليب وتمتمتُ:

- يا ربّ هبها عطية الحياة الأبدية.

- آمين.

لم تسألني أمّي ماذا حدث لي في نصيبين، وكيف ارتبطتُ بإلياس، بل قالت:

- حكى لنا إلياس كل شيء عنك. كان قلبي يحدثني أنني سأراك بعد هذه السنين الطويلة.

- حمدًا لله يا أمّي، وأنتما كيف نجوتما ووصلتما إلى بغداد؟

# كلاديس

حين بلغت القافلة دير الزور أوقفها الجندرمة عند ضفاف نهر الفرات، وسمحوا لنا أن نفترش الأرض، ثم أقاموا مزادات لبيعنا، فصار المشترون يدفعون عشرين قرشًا لشراء الفتاة الشّابة وخمسة قروش لشراء الصبي أو المرأة المتوسطة العمر. شكرنا الربّ على نجاتنا، وأخذنا ننتظر مصيرنا على يد المشترين. وما هي إلا ساعة حتى جاء متصرف دير الزور، يرافقه رئيس البلدية ووجهاء المدينة، فخاطبنا قائلًا «اسمي علي سواد بك متصرّف اللواء، وهذا الحاج فاضل العبود رئيس البلدية. أرحّب بكم بين إخوانكم أهل دير الزور الذين هبّوا لنجدتكم من المحنة، ومد يد العون لكم لا لشيء آخر. سيأوي كل بيت من بيوت المتمكّنين عائلةً أو أكثر منكم. والخيار متروك لفتياتكم وأراملكم الشّابات إذا كنّ يرغبن في الزواج من شبّاننا ليستروا عليهنّ».

كان نصيبنا، أنا وخالك، بيت رجل شهم اسمه ياسين البدراني، أنقذنا إلى حين من مخالب الجوع. وكان المتصرف رجلًا كريمًا، ضمِن لجميع المُبعَدين الأمن والظروف السليمة خلال أشهر، وصار

يمنحهم إعانات ماليةً، ويعاقب عقابًا صارماً كل مَن يحاول الاعتداء عليهم، وبنى لهم مشفى عسكريًا صممه مهندسون وبناؤون أرمن. وبمرور الوقت تحول تجمّعهم إلى حي نشط أُنشئت فيه الأفران والأسواق، وأطلقوا عليه، تقديرًا لسواد بك، حي «السوادية». واستطاع خالك بعد مدة أن يجد عملًا في محل للبسطرمة(*).

مكثنا في دير الزور سبع سنين، ثم جئنا إلى بغداد بعد أشهر من مناداة الأمير فيصل بن الحسين ملكًا على العراق. أثنى كثيرون على البلد قائلين إن فيه خيرًا وفيرًا، وأن شعبه مضياف، رؤوف بالمقهورين، ويوجد فيه أرمن منذ قرون بعيدة، يعيشون في طمأنينة، ولديهم كنيستهم وأنظمتهم التعليمية والقضائية الخاصة.

أجّرنا دارًا صغيرةً في منطقة تُعرف بالميدان على مقربة من كنيسة القديسة مريم للأرمن الأرثوذكس، وهي الدار التي ما زلنا نسكنها، وحظي خالك بعمل مماثل لعمله السابق في محل صاحبه أرمني من مبعدي ساسون، وكان له دور في إقبال أهل بغداد على البسطرمة، ثم فتح محلًا خاصًّا به في أكبر شوارع المدينة اسمه شارع الرشيد.

(*) اللحم المجفف المقدّد.

# (18)

احتفت مريم بنا في بيتها الصغير احتفاءً نادرًا، ودعا إلياس على شرفنا سيدةً أرمنيةً تسكن مع ابنها في بيت مجاور. عرّفتنا مريم إليهما قائلةً:

- جارتي السيدة بياتريس، وابنها أرمين، يعمل رفقة إلياس في شركة النفط، قدِما قبل سنتين من القدس، وهما مُبعدان من أورهاي.

غمرني اسم أرمين بإحساس باطني عذب، كأنه نغمة وجدانية، فقلت له، لا إراديًا، وأنا أصافحه:

- اسمك حلو جدًا، أنا اسمي لوسين ولقبي وردة الأنموروك.

ردّ مبتسمًا:

- ما أروعه من اسم! إنه يجمع بين القمر والزهرة النادرة التي لا توجد إلاّ على الجبال العالية، أما لقبك فهو يضوع برائحة البنفسج، ويبعث في النفس شهوة الحلم والتحليق.

أبهجني رده، فقلت:

- هذا غزل مبطّن، هل أنت شاعر؟

- لا أكتب الشعر، لكني أهجس أن في صدري قلب شاعر.

- طوبى لك، لا يوجد أعظم من قلوب الشعراء.

- صدقتِ، لذلك يقول مثل مغمور قلب الشاعر لا تأكله الأسماك.

كان أرمين يحمل كيسًا ورقيًا أعطاه لإلياس، وهمس في أذنه. أخذ إلياس الكيس إلى المطبخ، وعاد بعد قليل حاملًا صينيةً عليها مجموعة كؤوس فيها سائل ذهبي غامق. قدّم لكل منا كأسًا وهو يقول في جذل «كونياك أرمني من صديقي أرمين. ربما لم يسبق لكم أن تذوقتموه. إنه ألذ أنواع الكونياك في العالم، أهداه له أحد المهندسين في الشركة ولم يشأ أن يبخل به علينا. نخبكم جميعًا».

كان أرمين أصغر مني بسنتين، عيناه مشعتان صقيلتان تموران بالذكاء كآنهما مرآة، وحين يخفضهما إلى أسفل ينطفئ شيء ما في وجهه. لمست فيه فيضًا من الوداعة واللطف والتهذيب، وميلاً إلى تقديم انتمائه الأرمني على انتمائه المسيحي، فخلّف في نفسي انطباعًا بأنه أفضل شاب أرمني أتعرّف إليه مذ وطأت قدماي أرض العراق، وتحفزت للقائه على انفراد.

شعرت سالي بإعجابي الدفين بأرمين، وشجعتني على أن أخطب ودّه، واستأذنت إلياس أن يوصلها هي وشقيقها سيمون إلى منزلهم. ودعتها وأوصيتها أن تهتم بأمّي، فقالت بما يشبه التأنيب «توصيني بها؟! اهتمي بشأنك ولا تفكري فيها. أنتظر منك خبرًا سارًّا».

اكتشفت، حين انزويت بأرمين، أنه يجمع بين العاطفة السخية والتعقل، تدور في رأسه عاصفة من الأفكار. حدّثني عن مسقط رأسه أورهاي، وحدّثته عن اقتلاع أُسرتي مع أهالي بلدتي، وفجيعتي بفقدانها في الطريق، وكيف انتهى بي المطاف إلى الموصل لتتبنّاني السيدة جوري، وتغدو أمّي الثانية.

# حاشية

«ذكرتُ للوسين في ذلك اللقاء أنني عثرت في مكتبة الشركة على تقرير كتبه السفير الأمريكي في السلطنة هنري مورغنتاو يكشف عن الفظائع التي ارتكبها الاتحاديون بالتفصيل، منها طمس كل ما له صلة بالأرمن مثل المعالم والآثار الثقافية، وتغيير أسماء المدن، ونسف النصب التذكارية بالمدافع والديناميت، وتحويل الكنائس إلى مساجد وسجون ومخازن وحظائر».

**أرمين**

# (19)

بقيت نهار اليوم التالي أفكّر في أرمين، وظلت صورته مرتسمةً في خيالي، ومالت نفسي إلى لقائه مرةً ثانيةً. انتظرت حتى المساء، مترحلةً بين حجة وأخرى للانفراد به، وأخيرًا اهتديت إلى حجة اختلقتها لمريم مؤداها أنني أود أن أكلّم السيدة بياتريس حول موضوع ذكرته عرضًا، واستأثر باهتمامي. انطلت الحجة على مريم فاصطحبتني إليها، ولم تمكث معنا، قائلةً إنها مضطرة إلى الانصراف لتجهيز العشاء.

بعد نحو ربع ساعة مضت السيدة بياتريس إلى المطبخ لتجهّز العشاء، أيضًا، على اعتبار أنني ضيفةً، وليس من الكياسة أن أدخل بيتها وأخرج من غير عشاء. إلاّ أنها، أغلب الظن، تعمّدت تركي وحدي مع أرمين، وقد تعزّز ظني حينما لزمت المرأة مطبخها مدةً لا تقل عن ساعة ونصف الساعة.

زال الحاجز بيني وبين أرمين في ذلك اللقاء، وتشعّب بنا الحكي، وأسهبنا في الحديث عن أشياء كثيرة، رويت له ما شاهدته من الأفعال التي ارتكبها الجندرمة العثمانيون، وجانبًا من حياتي في الموصل، وتحدّث هو عن بلدته أورهاي، ومقاومة أهلها للعثمانيين قائلًا:

- ما زلتُ يا لوسين أحنّ إلى بلدتي أورهاي. الله ما أجمل قلعتها وبحيرتها. لها تاريخ قديم جدًا يعود إلى عشرة قرون. تعاقبت على حكمها أقوام كثيرة: آراميون وآشوريون ويونانيون ورومانيون وصليبيون وعرب وأتراك وغيرهم، ويُقال إنها عُرفت في عصور ما قبل الميلاد باسمها الإغريقي إديسا، أما العثمانيون فيسمونها أورفة. كان أخي يأخذني قبل الحرب إلى بحيرة الأسماك التي يطلقون عليها بِركة إبراهيم. ويُشاع أن من يلمس أسماكها يُصاب بالأذى.

- هل هي أسماك قاتلة؟

- لا، لكن الناس كانوا يخافون لمسها لأن ثمة أسطورةً يتداولونها تقول إن الملك نمرود الجبار، الذي ادّعى الربوبيّة، حاول حرق النبي إبراهيم في هذه المنطقة. وعندما أمر الله النار بأن تكون بردًا وسلامًا عليه تحولت النار إلى هذه البحيرة وحطبها إلى أسماك.

جرّنا الحديث، بعدئذ، إلى أن أسأل أرمين عن مقتل أخيه وإبعادهم إلى بلدة برج حمود، وعن رحيلهم إلى القدس، ثم مجيئهم إلى العراق.

# حاشية

كان عمري آنذاك ثلاثة عشرة عامًا، ولم أكن مهيئًا بعد لمواجهة مخاطر الحياة، ولا أعرف كيف قُتل أخي، أخذه الاتحاديون من البيت مكبّلاً، قبل ترحيلنا بشهر، بتهمة مشاركته في الاعتداء على جنودهم. كانوا يطلقون مصطلحات مثل المعتدين، والمتمردين، والعملاء، والخونة على المقاومين. بالطبع تملّكنا قلق شديد عليه، وصرخت أمّي مستشاطةً غضبًا واعولّت، إلاّ أنهم سحلوه من البيت مثلما تُسحل الدابة. بحث أبي عنه في كل مكان فلم يجده، وبعد يومين علم أنهم عذبوه عذابًا شديدًا حتى قضى نحبه.

في برج حمود سمعت من بعض الرجال، الذين نجوا من المذابح، أن الجندرمة مارسوا أساليب وحشيةً في قهر الأرمن وتعذيبهم وقتلهم: السحل، والحرق، والنحر، والشنق، والسلخ، والخوزقة، والرمي من فوق القلاع، والإعدام بالرصاص، وتكسير الرؤوس، ودفن الأحياء في مقابر جماعية، وغير ذلك مما لا يخطر بالبال.

تقع برج حمود في الضفة الشرقية لنهر بيروت، الذي يجري

قرب أقدام سكان أحيائها، ويصبّ في البحر، ويربطها ببيروت جسر حجري روماني. عندما أوصل الجندرمة الناجين في القافلة تركوهم هناك لقدرهم، فنصبوا سنجقًا من خيم بدائية، وكانت المستنقعات تغطي المنطقة، ما ولّد أمراضاً كثيرةً، لذا لم يجدوا بدًّا من القيام بأعمال شاقة لتجفيفها، ثم بدأوا بخطوة مهمة، خطوة استبدال الخيم بمنازل من الخشب والصفيح، وفتح أسواق صغيرة ومحلات لممارسة المهن التي يجيدونها، كصناعة الذهب، والأحذية، والنجارة، والحدادة، والخياطة، والأجواخ، والتصوير الفوتوغرافي.

كانت ولايات عديدة في سوريا العثمانية قد ضربتها المجاعة آنذاك، بسبب أمر الحاكم العسكري جمال السفّاح بمصادرة المحاصيل والأملاك لخدمة المجهود الحربي، وفرار الشبّان من الأراضي الزراعية في الريف إلى المغتَرب هربًا من التجنيد الإجباري، وظهور أسراب الجراد التي غطت قرص الشمس. اختفت الحبوب من الأسواق، وارتفعت أسعارها ارتفاعًا فاحشًا حتى بلغ ثمن رطل الخبز ليرةً ذهبيةً، وتعذّر على الفقراء الحصول عليه، ومات الكثيرون من الجوع. كان الناس يتحملون المشقّات والأخطار من أجل تهريب كميّات قليلة من القمح من عكار أو البقاع أو حوران، لكن عيون العسس كانت يقظةً لمنع تهريبها ومعاقبة المهرّبين.

من حسن حظنا أن أمّي كانت بحوزتها كمية جيدة من الليرات الذهبية أنقذتنا من المجاعة، وساعدت أبي في فتح مخيطة، شاركه عمي في العمل بها، وكان كلاهما يتقن خياطة الملابس الرجالية والنسائية مذ كنّا في أورهاي.

أما أنا فقد كنت أقطع الجسر الحجري مشيًا كلّ يوم إلى بيروت، صحبة بعض فتيان العوائل الموسرة، صوب مدرسة رشدية قريبة تضم خليطًا من التلاميذ المارونيين والمسلمين والأرمن. كنت الوحيد بين أقربائي المُبعَدين يرغب في إكمال تعليمه، فيما آثر الباقون العمل مع ذويهم لكسب القوت.

كانت الدراسة في المدرسة بالتركية والعربية، وكنت تلميذًا مجدًّا ومجتهدًا ومتفوّقًا أحصل على أعلى الدرجات وجيد السلوك، أقول هذا ليس من باب التباهي، بل لأنني كنت كذلك بالفعل، ثم أن الله أنعم عليّ بأصدقاء رائعين كان لهم الفضل في تعلّمي المحادثة بالعربية خلال أقل من سنتين، ووجدتني، حين أنهيت الدراسة بنجاح، أنزع إلى التخصص في هذه اللغة، التي أحببتها كثيرًا، بالانتقال إلى معهد يُعلّم آدابها، غير أن أمرًا مفاجئًا حدث آنذاك حال دون تحقيق رغبتي، فما إن انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية حتى قرّر الحاكم الفرنسي للبنان إعادة المبعدين إلى بلادهم بإشراف الجيش. أصاب الذعر نفوسنا جميعًا خشية أن ينتقم منا الاتحاديون ثانيةً حينما تُتاح لهم الفرصة، فرأى أبي أنّ أفضل حل لنا ولأُسرة عمي أن نذهب إلى القدس للحج، ونمكث فيها. وهكذا باع المخيطة، ورحلنا إلى القدس، واستقرّ بنا المقام في حارة الأرمن، التي تشكّل الجزء الشمالي الغربي من المدينة.

وجدنا في تلك الحارة ديرًا قديمًا للأرمن يحوي كنيسةً اسمها مار يعقوب، ترجعها الروايات الأرمنية إلى القرن الرابع، وتُنسب

إلى القديس يعقوب المدفون فيها. وللدير مكتبة فيها مجموعة من المخطوطات والفرمانات السلطانية المملوكية والعثمانية.

لم يعثر أبي في الحارة على محل فارغ يفتتح فيه مخيطةً، فاضطر إلى العمل، هو وعمي، في صالة الدارة التي استأجرناها، وكانت ذات طابقين، اتخذنا نحن الطابق الأرضي مسكنًا لنا، وأقامت أُسرة عمي في الطابق الفوقاني.

كان من المرجّح أنني سأنتسب إلى معهد في القدس يحقق لي ما كنت أصبو إليه في بيروت، لكن أبي نصحني بأن أكمل تعليمي في معهد الحقوق تفيدني شهادته في الحصول على وظيفة أكثر نفعاً. ربما كان محقًّا، فلولا نصحيته، رحمه الله، لما تيسّر لي أن أعمل في الدائرة القانونية بشركة النفط هنا».

**أرمين**

## (20)

سألت أرمين:

- متى توفي أبوك؟

تحسّر وقال:

- منذ سنتين.

- هنا في كركوك؟

- لا، في القدس، قبل مجيئنا بثلاثة أشهر.

- أكان ذلك بسبب مرض عضال؟

- لا، مات مقتولاً.

- يا يسوع! من قتله؟

- تاجر كان يبتاع منه الأقمشة.

- عجبًا؟

- وقع بينهما خلاف بسبب غش التاجر لأبي، ثم تطور الخلاف بينهما، حسب رواية عمي الذي كان حاضرًا الواقعة، إلى جدل عنيف، ففقد التاجر صوابه، واستلّ سكينًا وغرسها في بطن أبي.

- يا أبانا الذي في السماوات! وماذا فعل عمّك؟

- هجم على التاجر وكاد يخنقه، لكن اثنين من العمّال في المتجر سمعا الجلبة فأسرعا وأنقذاه من الموت.

توتّرت إثر ذلك علاقة عمي باليهود، بسبب تهديداتهم له كي يرغموه على التنازل أمام المحكمة عن التاجر القاتل.

- أكان التاجر يهوديًّا؟

- إي، وما إن صدر الحكم بتجريمه وسجنه حتى غادر عمي القدس، هو وأُسرته، قادمًا إلى بغداد.

في نهاية اللقاء، تعاظم انجذابي إلى أرمين، شدّتني إليه عاطفة مبهمة وملتهبة، رغبة في أن يغدو شريك حياتي، يحقق سعادتي، ويكون مأوى لي وأكون مأوى له، خاصةً أنني بلغت السابعة والعشرين، ولم يهفُ قلبي لأحد مذ انطوت صفحة عشيق الصبا آرشاك، وخمدت جذوته. إلاّ أنني أحجمت عن إظهار ما يمور في أعماقي له، لم أمتلك الجرأة خشية أن يكون على صلة بفتاة أخرى ينوي الاقتران بها، أو أن يحول فارق السن بيني وبينه دون انجذابه إليّ، فضلًا عن ذلك كان من غير المستحب، حسب التقاليد التي نشأت عليها، أن تجازف البنت في مكاشفة الشاب صراحةً بشأن كهذا.

أوصلني أرمين، بعد العشاء، إلى بيت مريم، وودعني عند الباب قائلًا إنه سعُد بزيارتي. شيّعته، وهو يقفل راجعًا، بنظرة شغوفة، وتمنيت لو أنه اقتطف مني قبلةً بدلًا من أن يكتفي بعبارته الوداعية.

انكفأت تلك الليلة إلى نفسي، ووجدتني أخوض صراعًا مع الحواجز التي تعترضني في مفاتحة أرمين بما يعتمل في سريرتي وما أصبو إليه، وكاد النوم يجافيني.

# (21)

لم أستطع إخفاء الأمر عن مريم، بل قررت أن ألوذ بها، أكشف لها عن توقي إلى الاقتران بأرمين، وأسألها عن السبيل الذي عليّ أن أسلكه.

استقبلت مريم حيرتي بابتسامة عريضة، زاخرة بودها المألوف، وفاجأتني بأن أرمين معجب بي، مثلما أنا معجبة به، وجهر لإلياس خلال العمل، ذلك اليوم، برغبته في الزواج مني. أبهجني كلامها، وجعل هواجسي تتوارى، وما إن التقينا في اليوم التالي حتى بادرته قائلةً:

- انتظرت أمس أن تصارحني بما يجول في خاطرك، غير أنك لم تفعل، وأنا أيضًا أحجمت عما أضمره لك في دخيلتي، وها أنني اليوم أتجرأ أن أطلب يدك زوجاً، فهل أطلبها منك أم من أمّك السيدة بياتريس؟

بدت مبادرتي لحظةً لها رهبة خاصة في نفس أرمين، فأشرق وجهه وكسته حمرة الدم، وأمسك بيديّ وقال مازحًا:

- أنا أحتاج إلى شيء من الروية قبل إعطائك جوابًا نهائيًا، امهليني بضع دقائق لآخذ رأي أمّي.

- أمهلك طبعًا.

غادر أرمين مغتبطًا، فران علينا السكون، وما إن انقضت ربع ساعة حتى أقبل تتبعه أمّه، وضمني إلى صدره، فشممت رائحة عطر زكية تنبعث من قميصه. غمرت البيت سحابة عظيمة من السعادة، وهرع إلياس إلى المطبخ وجلب كؤوساً أخرى من الكونياك الأرمني.

حين أخبرت أمّي جوري، عقب يومين، برغبة أرمين في خطبتي دمعت عيناها، واحتوتني بذراعيها قائلةً:

- بنيّتي الغالية مليكة، إنه يوم سعدي أن أراك عروسًا.

## (22)

لم أقابل السيدة التي سبق أن قابلتها صدفةً في الكنيسة. كنت أجهل اسمها، واستبعدت بقاءها في الموصل، قلت في سريرتي ربما ارتحلت إلى بغداد لتحصل على المساعدات السخية التي كانت تقدمها الثرية الأرمنية سارة خاتون للمبعدين، وكان قد تناهى إلى علمي وقتها أن العديد من الفقراء الأرمن في الموصل قصدوا بغداد لهذا الهدف.

## (23)

جاء أرمين وأمّه إلى الموصل بعد رجوعنا بأسبوعين، فأتممنا مراسم عقد القران والزواج في كنيسة الأرمن المقدسة في سوق الشعارين، حضرتها أمّي جوري وابنتها سلطانة وأختها بدور، وثلة من المسيحيات اللواتي زاملتهن في معهد المعلمين، رفقة أُسرهنّ، وعدد من معارفي الأرمن. يومها قالت لي أمي جوري محرَجةً:

- ملّوكتي، نحن أول مرة ندخل كنيسةً، ماذا سيقول الناس عنا؟ أخاف أن يظنوا أننا غيرنا ديننا.

طمأنتها:

- لا تخافي، هذه ليست أول مرة يشارك فيها مسلمون أصحابهم المسيحيين في مناسباتهم.

- والناس داخل الكنيسة! ألن يستغربوا من وجودنا؟

- لا أبداً، إنهم معتادون.

- وهل سيطلب مني القس أن أشهد على زواجك؟

أردت أن أمازحها فسألتها:

- ألستِ أمّي؟

- بلى مَن ينكر ذلك؟ لكن أخاف أن يحلّفني.. أقصد بماذا سيحلّفني؟

- اطمئني لن يحلّفك، ولن يحتاج إلى شهادتك. أما إشبينتي فستكون أخت صديقتي سالي.

سكنا أنا وأرمين بالطبع مع أمّه، وكانت سعادتي كبيرة لأنني كنت ألتقي مريم يوميًّا، تزورني أو أزورها بعد ذهاب زوجينا إلى العمل، ونقضي معًا نحو ساعتين، نتدفق بالأحاديث، ونوقظ ماضينا الجميل في الأيام القديمة، أيام مراهقتنا في سِيفان، ونبكي أحيانًا عندما تخطر ببالنا أُسرتانا.

## (24)

بعد انقضاء ستة أشهر على زواجي من أرمين صدر أمر نقله إلى بغداد، فألزمنا ذلك الارتحال عن كركوك. كنت وقتها حبلى ببكري، الذي قررت أن أسميه صوغومون إذا كان ذكرًا، ومريم، على اسم صديقتي، إذا كان أنثى.

لم أبتهج لترك المدينة، التي أحببتها، رغم أن أناسًا كثيرين كانوا يتمنون أن يقطنوا بغداد. قلت لنفسي «لعل من الخير أن يتمنوا ذلك، أما أنا فلن أبتهج لأن الرحيل سيكلّفني ما لا أطيقه، سيكرهني على مفارقة مريم وسالي مرةً أخرى، وسيزيد المسافة بيني وبين أمّي في الموصل، سيجعلني أحس بأنني طائر اقتُلع من عشه، كما اقتُلعت من سِيفان ذات يوم». لكن، على أية حال، قصدنا بغداد على كره مني. سكنّا في كمب سارة، الحي الذي يحمل اسم سارة خاتون المالكة الحقيقية له، حالنا حال معظم الأرمن.

كانت قصة تلك المرأة العصامية، ليس هذا وصفي الشخصي لها، بل وصف من كتب عنها، مأساويةً، ورثت عن أبيها أوهانيس إسكندريان تركةً كبرى سطا عليها عمّها سيروب وهي يتيمة صغيرة، ثم كبرت وكبر معها جمالها الأسطوري الأخّاذ، فهام في حبها والي

بغداد العثماني آنذاك ناظم باشا، لكنها رفضته رفضًا باتًّا، وحاول أن يراودها فأبت، ثم أرسل لها من يدعوها لبيته فرفضت الدعوة، وأخيراً لم يجد غير أن يخطبها ويتزوجها، فردته. وحبن تحول حبه لها إلى ما يشبه الجنون بعث جندرمته إلى بيتها ليقتحموه ويأتوه بها غصباً، لكنها تسلقت جدار البيت والتجأت إلى الجيران، ومنه إلى القنصلية الألمانية. آواها القنصل بضعة أيام، ثم تخوف من تعكير العلاقة مع العثمانيين حلفائهم، فهرّبها إلى بيت نقيب بغداد. ما إن سمع الوالي بذلك حتى أرسل الجندرمة لمحاصرة البيت ومنعها من الهروب. اشتد الحصار على بيت النقيب، وراح الوالي يضغط عليه لتسليمها إليه، إلاّ أن سكان الحارة تجمعوا واختلقوا حادثةً أبعدت الجندرمة عن البيت حتى تمكنت سارة من اختراق الحصار والهرب بعربة أجرة. وصلت شارع النهر فلحق بها الجندرمة، وهناك هب الفلاحون لنجدتها، وهجموا بفؤوسهم ومساحيهم حتى خلصوها منهم، فالتجأت إلى لقنصلية البريطانية. وبعد أيام تمكن القنصل من تهريبها إلى باخرة من شركة لنج في طريقها إلى البصرة تحمل العلم البريطاني، وعبر شط العرب نُقلت بباخرة روسية إلى الهند، ومنها إلى فرنسا. في باريس اقترنت بأرمني عراقي اسمه بتانييل تاتيوسيان، إلاّ أنها عادت معه إلى بغداد أواخر الحرب العالمية الأولى، وأسست الهيأة النسوية الأرمنية لإغاثة الناجين من الإبادة، وأخذت تنفق ثروتها الكبيرة عليهم. لكن من سوء حظها أنها وضعت ثقتها بسماسرة وأشخاص مستغلين طامعين في ثروتها، فضلًا عن تبذير ابنها الوحيد برسي، الذي ظل مقيمًا في فرنسا بحجة الدراسة، وطلباته المستمرة مبالغ كبيرة لينفقها على ملذاته، وحينما لم تكن

تتوفر لديها تلك المبالغ كانت تضطر إلى اقتراضها من مرابين بفائدة عالية جداً، وبضمان رهن ملك من أملاكها.

ألتقيت سارة العفبفة النبيلة مرةً واحدةً في بيتها الذي كان مفتوحاً للجميع، ورويت لها مأساتي، على نحو مقتضب، فضمتني إلى صدرها، وذرفت دموعها على شعري.

## (25)

مع تباشير الصباح، وإشعاعات الشمس الأولى، هبّ الجندرمة وأيقظوا القافلة بأبواقهم وزعيقهم ولعلعة رصاصهم. لم يظهروا أية ردة فعل تدل على اكتشافهم ما جرى في الليل، وكان ذلك كفيلًا بإغراء فتيان آخرين في القافلة للفرار في الليالي القادمة.

كانت خطتة هؤلاء الفتيان، كما أسرّ لأبي الرجل الخمسيني، تتلخص في التظاهر أمام الجندرمة، إذا ما قبضوا عليهم، بأنهم تحولوا إلى الإسلام، ويريدون تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية. لكنّ أبي لم يستسغ الفكرة:

- فرار هؤلاء الفتيان حماقة، إذا اكتُشف أمرهم سندفع نحن الثمن.

- كيف؟

- سيعمد الجندرمة إلى التزود بالسلاسل من الثكنات العسكرية ليصفّدونا بها.

- السلاسل ولا موت أبنائنا يا أبانا.

- الربّ افتدى نفسه على الصليب من أجل خلاصنا نحن الخُطاة، وزوجتي ماتت مسيحيةً في الطريق وهي تحمل اسمًا أرمنيًّا، فكيف أجيز لابني أن يخونها؟

ردّ الرجل بصرامة:

- ليس في الأمر خيانة ما دام إيمانه بيسوع قائمًا في داخله.

- الإيمان من غير أعمال صالحة ميت كما أن الجسد من غير روح ميت، وما سيفعله هؤلاء الفتيان ليس من الأعمال الصالحة، بل كذب واحتيال.

- التقيّة مباحة للمؤمن من أجل دفع الأذى عن نفسه.

- «خبز الكذب لذيذ للإنسان، ومن بَعد يمتلئ فمه حصًى».

- أن يمتلئ بالحصى أهون من أن يمتلئ بالدم.

قال أبي جزعًا:

- أنت تجادل وفقًا لأهوائك. هل كنت تحضر القدّاس الإلهي؟

أجاب الرجل في برود:

- في شبابي كنت أحضر دون انقطاع، في ما بعد صرت أحضره في أوقات متباعدة.

- لماذا؟

- لم أجد لزومًا لذلك.

استُفزّ أبي:

- يا ابن الله! كيف؟ أنت أشبه بشجرة رَديّة. إن عدم حضور القداس خطيئة مميتة.

جثى الرجل على ركبتيه وقال:

- غريب أمرك يا أبانا! أكل ما لا يتوافق ورأيك خطيئة؟ يسوع

نفسه يقول «أُدخل مخدعك واغلق بابك وصلّ إلى أبيك في الخفاء»، وهذا يعني أن الربّ يرنو إلى القلب وليس إلى المكان.

أخذ أبي نفسًا وحاججه:

- القدّاس الإلهي سرُّ القربان المقدّس، وهو حضور المسيح وكشفٌ للمملكة المباركة. ما قلتَه أنت ينطبق على صلوات المسيحي في مخدعه أو بينه وبين الله في أي مكان، أما صلاة القدّاس الإلهي فإنها الصلاة الجماعية مع سائر أفراد الكنيسة الذين هم جميعًا أعضاء في جسد المسيح.

تطلّع الرجل حواليه وقال:

- هراء، أنا لا أومن بأية صلوات طقسية، ولا بكهنوت البشر، ولا بشفاعة القدّيسين، ولا بشفاعة الموتى في الأحياء، ولا الأحياء في الموتى، ولا وساطة بين الله والناس.

أربد وجه أبي بسبب ما اعتبره إهانةً موجهةً لإيمانه، وردّ عليه:

- هراء؟ يا ابن الله! هذه معتقدات مسيحية ثابتة، أما ما قلتَه أنت فهو الهراء بعينه، أنت رجل من رأسك إلى قدميك خائن للربّ.

قال الرجل بثقة أغاضت أبي:

- هذا رأيك، أنا لا أومن بالثبات، الطبيعة والمعتقدات والأفكار في تغيّر دائم، وكل إنسان له الحق في أن يعتقد بما يشاء.

انتفض أبي، وكأنه تلقى ضربةً على رأسه، وسأله:

- هل أنت شيوعي؟

ابتسم الرجل وقال:

- لا.

- بروتستناتي؟

- إلى حد ما.

فغر أبي فاهه وسأله:

- معنى ذلك أنك تعلمت هذه الفلسفة من مارتن لوثر؟

- بل من قراءاتي ومكابداتي في الحياة.

صمت أبي هنيهةً، وعاود يسأله:

- ما مهنتك؟

- ماذا تظن؟

- لا أستطيع أن أخمّن، لكنك حتمًا تقوم بأعمال خاصة.

قال الرجل متحسّرًا:

- ليست لي مهنة ثابتة، عملت في مهن عديدة، دباغ جلود، بائع سلال وفخار، عامل في مكتبة، حمّال، صانع قواقيب، طحّان، حفّار آبار، وهلمّ جرًّا. وفي أغلب هذه المهن كنت أكدح كالثور، وأُصاب بالمرض، عدا عملي في المكتبة كان مريحًا نوعًا ما، إلاّ أن صاحبها أفلس في النهاية وأغلقها.

صمت الرجل قليلاً، ثم تابع كلامه:

- أثناء عملي في دباغة الجلود مرضت مرضًا شديدًا كدت أقضي نحبي بسببه، لولا حكمة عجوز كانت تعدّ عقاقير من مركبات نباتية لها فعل السحر في علاج بعض الأمراض، ومنها المرض الذي أصبت به.

- لماذا لم تثبت على مهنة واحدة؟

برم الرجل إصبعًا من أصابعه وقال:

- لأن كل الذين عملت معهم كانوا قساةً وأفظاظًا. وعدا عن ذلك كنت أعمل أجيرًا لدى أحدهم ساعات طويلةً وفي نهاية الشهر لا ينقدني إلاّ ما يكفي لسد أودي أو بالكاد. وأخيرًا عزمت على أن أعمل لحسابي بائعًا متجولًا، لكن من غير طائل فقد أصبحت مُبعدًا.

- يا لك من شقي سيء الحال والحظ. لم تذكر لي اسمك حتى الآن.

- اسمي هاكوب كاسبيان.

فكّر أبي قليلًا، ثم سأله:

- هل تمتُّ بصلة قرابة لأوهانيس كاسبيان صاحب القصر الذي يشغله الصدر الأعظم؟

ردّ الرجل من فوره:

- لو كنت من أقربائه لما كانت حالي بائسةً. أنا في الأصل من ساسون.

- وما الذي أتى بك إلى سِيفان؟

- قدِمت إليها بعد الانتفاضة الثانية.

- هل شاركت فيها؟

- لا، كنت وقتها في القسطنطينية.

- عجبًا؟

- كنت أعمل في المكتبة التي أفلس صاحبها.

علّق أبي متثائبًا:

- يبدو إذن أن الكتب التي قرأتها هي التي جعلتك تتمرد على الإيمان المسيحي الصحيح.

- بالعكس، لقد فتّحت عينيّ على أشياء كثيرة.

كنت أرهف السمع جيدًا إلى الحديث الذي يدور بينهما، فبَلبَل كلام الرجل دماغي، مع أنه كان مبهمًا على مداركي، وتساءلت في سريرتي: أهذا هو التأثير المأمول من الكتب؟ هل تغيّر عقول الناس بالفعل كما كانت تقول معلمتي زابيل؟ ربما أرادت بذلك أن تشحذ أذهاننا، وتدفعنا إلى المطالعة، وإلاّ لماذا كانت تشدّد على أنها من أهم الأنشطة التي يمارسها الإنسان لتعميق إدراكه، وصقل شخصيته؟

بالنسبة لي كانت مطالعاتي وقتها تقتصر على الكتب المدرسية، ولم أطالع غيرها إلاّ بضعة كتب صغيرة أعارتها لي مريم، كانت تتضمن بعض الأشعار وقصصًا عن الحب. أما كتب أبي في البيت، وهي قليلة لا تزيد عن السبعين، فقد كانت كلها كتبًا دينيةً باللغتين الأرمنية والتركية. كنت أكتفي بنفض الغبار عنها وتصفّحها بين حين وآخر، ولا أتذكّر أنني رأيت أبي يقرأ واحدًا منها ذات يوم. كان يروق له أن يقرأ الإنجيل فقط بحضورنا، ويفسّر لنا ما يعتقد بأنه يحتاج إلى تفسير من آياته.

يا لهاكوب من شخصية عجيبة، لقد دار بينه وبين أبي حوار أخرق أدخل الشك في رأسي، وصار التخلّص من تأثيره في نفسي ضربًا من المستحيل حتى هذه اللحظة، وكأن مسًا منه قد أصابني.

ليت القدير أنجاه من الهلاك كما نجّى آخرين.

## (26)

بلغت القافلة ظهيرة اليوم الثالث أطراف بلدة على ضفاف نهر دجلة. كانت الريح المشبعة بالرطوبة تضرب وجوهنا، وعلى امتداد الطريق تنتشر أشجار عُلّق على أغصانها رجالٌ من عراقيبهم.

سرت في جسدي قشعريرة باردة، واستولى عليّ رعب ضاغط. خشيت أن يوقعوا الشرّ بأبي وأخي في نهاية المطاف مثلما أوقعوه بهؤلاء الرجال المساكين. مددت يدي داخل الخرج ولمست الإنجيل، ثم رسمتُ إشارة الصليب، ففعل مثلي آرام وزاروهي، وناجيت في باطني ربنا يسوع «يا يسوع الحبيب، يا شاطئ الأمان، أنت الذي شفيت المرضى والعميان والمُقعدين، وأخرجت الشياطين، وأَحييتَ الموتى، ومشيتَ على البحر. أنتَ الذي بشّرت العالم بالخلاص وهديت الضالين. استصرخك أن تبعد شرّ عديمي الرحمة هؤلاء عن أبي وأخي».

تسارعت حركة القافلة عندما صارت تجوز جسرًا حجريًا، ربما خشيةً من انهياره، واستغل عدد من الفتية الفرصة فوثبوا إلى النهر، مغامرين بحياتهم، وأطلق الجندرمة الرصاص خلفهم، لكني أظنهم أخفقوا في إصابة أحد منهم، فقد غطست أجسامهم في الماء خلال

لحظات، وجرفهم التيار بعيداً عن الجسر. من يدري، قد يكونون أصابوا بدلاً منهم بعض أصحاب قوارب صيد الأسماك المتهادية على سطح الماء.

كان ذلك الجسر، الذي يربط بين ضفتين تراكمت عليهما أكوام من النفايات، أول جسر أراه في حياتي، ففي سِيفان لا يوجد نهر، بينما يبعد نهر الفرات عنها بعشرات الأميال شمالاً، ولم تُتح لي فرصة الوصول إليه.

لقد بدت لي تلك النفايات، وأنا أشخص ببصري إليها من الأعلى، منظرًا منفرًا تحت أسيجة المنازل المتاخمة للنهر.

أخذت القافلة، بعد اجتياز الجسر، تبطئ في سيرها وهي تعبر من أمام قلعة مسورة بسور شاهق، وتطل على غابة ذات أشجار كثيفة، فاشرأبت أعناق المُبعَدين إلى أبراجها في فضول، كأنهم يتمنون لو تكون محطتهم الأخيرة التي تنتهي رحلة عذابهم في جنباتها.

التفت أبي إلينا وقال إن البلدة اسمها ديكراناجيرد، على اسم الملك الأرمني الكبير ديكران الذي عاش قبل الميلاد، ويُطلق عليها أيضًا بلدة النحاس، حكمها أجدادنا زمنًا طويلًا، وتوجد فيها كنيسة جرجيس الأرمنية الأرثوذكسية، وتُعرف الآن باسم ديار بكر، وسبق له أن مرّ بها في طريقه إلى ماردين أيام مشاركته في المقاومة.

كانت لديّ معلومات قليلة عن البلدة، اكتسبتها من درس الجغرافية في المدرسة، تشير إلى أنها أرض نفيسة، ومعدن الخيل

العتاق، وجزء من الجزيرة الفراتية، تتميز بخصوبة أرضها ووفرة مياهها، وتشكّل الحد الشمالي الشرقي لسوريا.

أوقف الجندرمة القافلة أمام ثكنة عسكرية في الطرف الجنوبي للبلدة، ودلف الرقيب الأول واثنان من مساعديه إلى داخلها. كانت ثكنةً ذات جدران بلون الخشب، محاطة بسور ضخم، يحرس بوابتها بضعة حرّاس، وتنتصب على جانبيها أربعة مدافع محمولة على عجلات متينة مغلفة بالحديد. حدست أنهم سيجلبون السلاسل، على أن الأمر لم يطل حتى خرج الرقيب الأول ومساعداه من الثكنة يرافقهم عدد من الجندرمة، وتبعهم سبعة خيّالة، وأخذوا يطوفون حول القافلة ويتفحصون الوجوه كأنما يبحثون عن أشخاص معينين.

مرّ بعض الوقت وهم على تلك الحال، وأخيرًا اختار كل واحد منهم فتاةً في عمري أو أكبر مني بسنة، وشدها من ذراعيها وأركبها أمامه على الحصان ومضى بها إلى داخل الثكنة.

عبثًا تعالت صيحات استنكار من المُبعَدين، واختلطت بعويل ذوي الفتيات المخطوفات، فقد ردّ عليهم الجندرمة الجدد بإطلاق الرصاص في الهواء وأسكتوهم، وملأ الرقباء الأنحاء بزعيق أبواقهم المزمجرة؛ آمرين القافلة بمعاودة سيرها.

قال هاكوب لأبي، وقد أصبح على مقربة منه، «قلت لك إني أخشى أن يأتي الدور غدًا على البنات الأبكار، وها قد أتى. حمدًا لله أنني لم أتزوج، ولم أنجب بناتًا»، إلاّ أن أبي امتعض من كلامه ولم يردّ عليه، ورمقني بنظرة ذات مغزى جعلتني أدرك مدى حكمة أمي عندما أخفت أنوثتي، ورحت أتخيّل كيف سيغتصبون الفتيات

المسكينات داخل الثكنة، وأفكّر من ناحية أخرى في ما يجيش في دخائل أمهاتهن وآبائهن من حزن وألم مريرين يقطّعان نياط القلب.

بعد أن قطعنا عدة كيلومترات مررنا من جنب سوَقيّة أخرى. كانت تبدو مثل سَوقيّتنا تمامًا، الرجال والنساء يمشون في تؤدة على أرجلهم، بينما يمتطي الأطفال الحمير واالبغال، لكنها كانت أكثر بطأً من سَوقيّتنا، لأن الرجال كانوا مصفّدين بالسلاسل، حيث جرى ربط معاصمهم اليمنى بعضها ببعض، فلا يستطيع أحدهم الإفلات أو الهرب إلاّ إذا قطع يده بنفسه.

قال هاكوب لأبي:

- هل ثمة مخلوقات أقسى من البشر؟ أليس ما يفعله هؤلاء عودة إلى زمن الرِّق؟

- بلى يا هاكوب، صدقت في هذا.

- حمدًا لله أنك أول مرة ترضى عن كلام يصدر مني.

- عندما يكون كلامك وازنًا لا أستطيع إلاّ أن أرضى عنه.

- قرأت ذات مرة في كتاب استعرته من المكتبة أن التجار البرتغاليين كانوا يربطون السود في إفريقيا هكذا، ويشحنونهم بالبحر إلى الأمريكتين. ولم يتورعوا عن شنَ حروب محلية ضد بعض القبائل، بمعاونة الإدارة الاستعمارية البرتغالية، من أجل الحصول على العبيد بأرخص الأثمان. أما الإنجليز فقد ابتكروا طرقاً مأساويةً لاصطياد العبيد، كانوا يُشعلون النيرات في الأحراش والأشجار المحيطة بأكواخ الأفارقة، فيضطر هؤلاء المساكين إلى الخروج من مساكنهم هرباً من النيران، فيتلقفونهم ويأسرونهم، ثم يرحّلونهم

جماعاتٍ سيراً على الأقدام إلى مخازن واسعة، وأحياناً إلى زرائب مكشوفة على طول الساحل تمهيداً لنقلهم بالسفن.

كان وراء كل جماعة أفراد يسوقونها، وبأيديهم أسواط يسوطون بها ظهور الذين يتباطؤون في السير. وكان الضعفاء يسقطون إعياءً فيُقتلون أو يُتركون ليلقوا مصرعهم. ولم ينسَ القساوسة تعميد الأحياء التعساء بالجملة، باسم الآب والابن والروح القدس، ليصبحوا مسيحيين قبل تسفيرهم.

- هل تقصد أن هؤلاء القساوسة كانوا متواطئين مع التجار؟

- لا يخامرني شك في أنهم كانوا متواطئين.

- لماذا لا تعتبر عملهم ذاك كان جزءًا من مهمتهم التبشيرية.

- أتسمي تعميد هؤلاء المساكين بالقوة تبشيرًا؟ قل لي أنت، أليست المعمودية علامةً حسيةً منظورةً يمارسها الفرد دلالةً على النعمة الداخلية التي حصل عليها؟

- بلى، هذه واحدة من معانيها.

- أية نعمة إذن كان يحصل عليها أولئك المستَعبدون؟

- قسمًا بربّنا إنك شيوعي ولست بروتستانتيًّا.

هبت، فجأةً، رياح غربية هائمة، وامتلأت السماء بسُحب داكنة تركض مثل قطيع ثيران هائج، وحجبت الشمس. وعلى جانبي الطريق أخذت أغصان الأشجار تتأرجح بشدة، وصرنا نسمع دويًّا خفيضًا للرعد، تحول بعد بضع دقائق إلى قرقعة مخيفة مصحوبة بالبرق، وهطل المطر طهطالًا وأخذ ينسرب، يصاحبه رعد مدوّ، عندئذ

أطلق الجندرمة الرصاص في الهواء، وأصدر رقباؤهم أمرًا للقافلة بأن تتوقف، تحسبًا لهروب المغامرين إلى البساتين المحيطة.

أنشأ أبي يردّد بعض الآيات، وحثّنا على تضرّع خشوعي إلى ربنا يسوع المسيح، فشرعنا نردد «يا يسوع، يا طويل الأناة وحدك، يا يسوع الجزيل الرحمة، ترأّف بنا وخلّصنا، يا يسوع القادر على كل شيء لا تهملنا، يا يسوع الفائق الصلاح اختطفنا من يد التنين».

انفرج الجوّ بعد وقت قصير على نحو غير مُتوقّع، وهدأ كل شيء، وبزغت الشمس، وحلّق في السماء سرب من الزرازير، مؤدّيًا حركات استعراضيةً في رحابة مذهلة، ثم غاب عن الأنظار، وكأن ربنا يسوع استجاب لتضرّعنا ورأف بحالنا، وتهللت وجوه الجندرمة، وأمرهم رقباؤهم بأن يسمحوا للقافلة بالراحة قليلًا.

لفحت رائحة التراب خياشيمنا قبل أن نترجّل عن ظهر الحمار. وعندما حطت أقدامنا على الأرض، التي تحولت إلى ما يشبه الوحل، شرع كل واحد منا يبحر في ألغازه العميقة: انشغل آرام بإطعام كلبه، والتصقت زاروهي بأبي، وراحت تحدثه عما يعتمل في نفسها، وطفق الحمار يبحث عما يسد رمقه، وأرسلت أنا بصري، أُسوةً بمعظم المُبعَدين في القافلة، إلى البستان المجاور، حيث تتدلى من أشجاره ثمار الكرز والخوخ والرمان، فشبّت في داخلي نار آرشاك، واستذكرت شجرة الرمان في دارنا، وخصلات شعري التي دفنتها تحتها، ومسحت باللثام عبرةً تدحرجت على وجنتيّ.

في المرة الأخيرة التي التقيت فيها آرشاك، على عجل، كان يستولي عليه قنوط رهيب، قال لي:

- أخشى يا لوسين أنني لن أراكِ بعد هذا اللقاء. أوغاد السلطنة يعدّون لنا مصيرًا مجهولًا لا نعرف عقباه، إلاّ أني ساظل أحبك إلى الأبد. عديني أن تظلي مثلي.

احتضنته، وأجهشت بالبكاء، وقلت له:

- أعدك، لكن عدني أنت أيضًا أن تبقى حيًّا لعلنا نلتقي.

- هل تحبينني بقدر ما أنا أحبك؟

- طبعًا يا آرشاك، أنت تبهج قلبي أكثر مما تتصور.

سرت البرودة، على حين غرة، في جسم زاروهي، وأخذت ترتجف وأسنانها تصطك كما لو أننا في أوج الشتاء. قالت بصوت متهدّج، كأنه يخرج من حنجرة مضغوطة، إنها تشعر بالغثيان، وإن أمعاءها مقلوبة تكاد تستقر في فمها، وثمة رائحة زنخة في لعابها الدبق. تراخى جسمها، وأرادت أن تجثو على الأرض، فأسرعت إلى الإمساك بها من ذراعيها، وساعدني آرام في رفعها.

أدرك أبي في لمح البصر أن المسألة تعود إلى توترها النفسي ولا تدعو إلى الفزع، وشجّعها على إفراغ ما في جوفها، إلاّ أنها لم تستطع، وبدا جسدها كله متشنجًا. كانت منذ طفولتها ترتعب من قرقعة الرعد، وعندما تسمعها تلوذ إلى حضن أمي.

سأل أبي آرام:

- هل تعرف يا بني ما الذي يقتضي فعله في مثل هذه الحالات؟

أجاب آرام:

- لا أعرف.

قال أبي:

- يقتضي أن يُدخل أحدهم إصبعه في حلق المصاب بالغثيان.

ابتلع آرام لعابه، ولبث صامتًا هنيهةً، ثم أدخل إصبعه في حلق زاروهي وسحبه، فدفق من جوفها سائل أخضر مصفر. أفرغت المسكينة ما أكلته في ذلك اليوم وفي ما انقضى من الأيام السابقة، ألقت به كله إلى الوحل. وبينما كانت عيناها تذرف الدموع سحبت نفسًا عميقًا، ورسمت على ثغرها ابتسامةً تشي بالراحة، فطفحت وجوهنا بالبِشر.

بعد أقل من ساعة أمر الجندرمة القافلة بأن تواصل سيرها، فامتطينا ظهر الحمار، الذي استعاد عافيته عقب التهامه حزمةً من الكلغان، وتعمّد أبي أن يؤخّر انضمامنا إلى القافلة حتى لا يكون هاكوب على مقربة منه. لم يفصح عن ذلك علانيةً، لكنني أدركت غايته.

# (27)

قُبيل أن يميل ميزان ذلك النهار هدّ الإعياء العديد من كبار السن في القافلة، وانتفخ لحم أقدامهم، فبدوا متهالكين كأنهم أشباح محدودبة، وتهاوى بعضهم، وتدحرج على الأرض المنحدرة كعجلة بطيئة، مخلّفًا آهاتٍ وأنينًا بين ذويه. أما النساء فقد خارت أجساد معظمهن، ووهنت عظامهن وكأنهن مساقات إلى الجحيم، إلا أنهنّ استطعن أن يقاومن ويواصلن السير في صعوبة، رغم الرذاذ الذي بدأ يسّاقط.

انتبه الجندرمة إلى تدهور وضع المُبعَدين، وحالما انحدرت القافلة إلى أرض مستوية لوّح الرقباء بأذرعهم؛ مانحين الإذن بتوقفها عن المسير لتظفر بالراحة، ليس رأفةً بها، بل تفاديًا لموت العديد من أفرادها قبل أن تحل لحظة بلوغهم بادية الشام.

توقفت القافلة قرب غدير، أشبه شيء ببحيرة، ذي سطح ساكن سكونًا تامًّا، نمت على حافاته نباتات وحشائش برية، وعلى مبعدة مترامية منه صف طويل من أشجار متناسقة. وحطّ المنفيون، في غضون دقائق، سلالهم وصررهم، وشرعت جماعة منهم في فرش بطانيات على الأرض المبتلّة، وانطرحوا عليها؛ موسدين أذرعهم، مثل

جثث فارقتها أرواحها توًّا، واكتفى آخرون بفرش ما كانوا يحملون من خرق واستراحوا عليها، واستخرج المدخنون منهم غلايينهم واشعلوها، وطفقوا ينفثون دخانها، في تلذذ، نفخات متلاحقةً، وتناول بعض الصغار ما خبأه أهله من أزواد في الخِراج ليسد بها جوعه.

فعل أبي مثل الجماعة الأولى، وأفسح لي ولآرام وزاروهي في المكان لنجلس، وقد بدا عليه التعب، رغم محاولته إخفاءه.

قلت له، وأنا أدلك ساقيه:

- أنا أستطيع المشي، لِمَ لا تأخذ محلّي على ظهر الحمار؟

لكن آرام أسرع قائلاً:

- بل يأخذ محلّي أنا. باستطاعتي السير ثلاثة أيام من غير أن أتعب.

طبطب أبي على ظهري، ومسّد شعر آرام وأجاب:

- لا عليكما، أنتما أولى مني، ثم ما ذنب الحمار المسكين أن يتحمّل ثقلاً أكثر من طاقته؟

بعد ساعات خيّم الغسق، فجاء هاكوب وقال لأبي إنه لم يبقَ لديه ما يؤكل، وسأله إن كان بميسوره أن يزوده مما لدينا من مؤونة. أشفق عليه أبي وأعطاه كميةً من خبز الرقاق والتين المجفّف تكفيه بضعة أيام، فراح يمضغ منها في شهية مفتوحة على آخرها، ثم عاد أدراجه ممتنًّا.

شعرت بأن أبي لا يكنّ لهاكوب ضغينةً، واستحسنت فعلته، رغم أنه غامر بإكرامه من مؤونتنا التي ربما لن تكفينا إذا طالت الأيام

قبل بلوغ القافلة محطتها الأخيرة، ولم أستطع كبح نفسي عن القول له «ليباركك الربّ يا أبي، إنه رجل طيّب، ويبدو شخصيةً متميزةً مهما اختلفت معه»، فنظر إلي بتمعّن وربت على كتفي قائلاً «وليحفظك أيضًا يا حبيبتي، لقد كبرتِ وصرتِ حكيمةً مثل أمك». ودمعت عيناه، بغتةً، فمسحهما بطرف كمه، ونهض واستخرج أكياس النوم، ووزعها علينا مع بعض الخبز والتين المجفّف.

بقيت جالسةً القرفصاء، بعد أن ازدردت حصتي، وبسطت ذراعيّ أمامي. في البدء تذكّرت أمي وحديثها إليّ وهي تقصّ شعري «أنت صبية جميلة ويجب صرف أنظار الوحوش عنك»، ثم أخذت أتفحص الفراغ الشاسع.

حين حلّ الظلام بدا لي العالم منقلباً من الذعر، قفاه فوق ورأسه تحت، النجوم منبسطة على الأرض، مضيئة كالسروج، والأجرام تدور كالمغازل حول نفسها، والسهول والهضاب والغدير معلقة في السماء. فركت عينيّ وتطلعت ثانيةً فإذا بالظلام المحيط بي يتعاظم ويتحرك فوق الظلام البعيد، ويتوحدان، ويتحولان إلى شيء واحد، ويمسيان أشدّ إعتامًا، ولا سبيل إلى التمييز بينهما.

هل كان ذلك حقيقةً أم أنه خاطر خطر ببالي؟

طلع القمر بدرًا شاحبًا أول الأمر، ثم تعاظم إشراقه بعد نحو ساعة، وصار يزداد تألقًا لحظةً بعد لحظة، وأمست أشعته تتراقص فوق ماء الغدير، الرقعة الأكثر انكشافًا في ذلك الفضاء الخالي. استبدّ بانتباهي، فجأةً، صوت عذب، جميل الوقع على السمع، يغني أغنيةً حزينةً تشق السكون، وتسري إلى أعماق القلب:

«تطير الفراشات الصغيرات في حريةٍ متناهيةٍ
تنتقل من حقلٍ إلى آخرَ بأجنحةٍ من حريرْ
بينما نحن الفراشات الأرمنيات مجلّلات بثيابِ الحدادْ
أعماقنا حزينةٌ
مترعةٌ بالعذاباتِ
تعصف بنا ريح نكباء
وليس في مقدورنا أن نطير».

كان صوتًا أنثويًّا رقيقًا تحسن التحكّم به، غير أنه عليل إلى حد ما، فاستوثقت أنه صوت صديقتي مريم، في نغماته ما ينبئ بأنه صوتها الذي أبتهج بسماعه، وشعرت بأن لا سلطان لي على ضبط نفسي من التوجه إليها، رغم محاولة أبي منعي من مغادرة مكاني.

أخذت طريقي إليها، متلكئةً، فألفيت مجموعةً من البنات في عمرها يتحلّقن حولها ويرددن تنهداتها، بينما كانت هي جالسة في مواجهتي تمامًا. عندما صرت على مقربة منها أزحت اللثام عن وجهي، فقطعت غناءها واستقامت واقفةً تنظر إليّ.

تسمّرت في مكاني مثل قطعة من جليد، لا أقوى على أن أخطو خطوةً إلى الأمام، وحملقت إليها. رأيتها تحت ضوء القمر بالتفصيل، بثوبها الأرجواني، وشعرها الأشقر المزيّن بشريطين أحمرين يتدليان فوق أذنيها، وأحسست بأن كياني يتبدّد، وتتبخّر أشلاؤه.

ضغطت على حنجرتي بصعوبة وصرخت باسمها «مريميك»،

فعرفتني من صوتي وهرعت إليّ، تكاد أقدامها تنثني، متعثرةً بالأجساد المستلقية في العراء، وضمتني إلى صدرها ضمةً طويلةً عميقةً. كانت مضطربةً، قلبها ينبض باسرع من المعتاد، وراحت تقبّلني ودموعها تنهمر بغزارة، وقالت بصوت ذي رنين كأنه خارج من بئر:

- ماذا فعلتِ بنفسك يا لوسين؟ أنت تبدين مثل صبي أمرد.

لففت وجهي باللثام، وغمغمت بصوت خافت:

- أرادت أمي أن تصرف أنظار الجندرمة عني، فقصّت شعري، وأمرتني بأن أخفي وجهي بهذا اللثام.

- يا لها من حكيمة، أمّي لم تفطن إلى ذلك. أين هي؟ أريد أن أسلّم عليها.

صمتُّ برهةً، ثم أجبت:

- ارتفعت روحها إلى السماء.

- ماتت؟

- لم تمت، بل ارتقت روحها إلى حيث يقيم المخلّص.

مسحت مريم خطين من الفضة انسابا فوق وجنتيها وقالت:

- أنا لم يبقَ من أهلي سوى أمّي وأختي سيرانوش وخالي ماردیك، ولو لم يكن سنّه فوق الخمسين، كما تعرفين، لما كان معنا الآن.

- يا أمّ فادينا! وماذا جرى للباقين؟

- أبي أعتقلوه ليلة إبعادنا بتهمة أن له صلةً سريةً بالطاشناق،

وحاول خالي إقناعهم ببطلان التهمة، لكنهم حذّروه قائلين «اغرب عن وجوهنا»، وهدّدوه بالاعتقال، أيضًا، إن لم يغلق فمه. أما أخواي فقد هربا قبل ليلتين، ولا أعرف أين انتهى بهما المطاف. إنهما لا يمتلكان الشيء الكثير من تجارب الحياة.

- هل أؤلاء الراقدون بأكياس النوم هم الباقون؟

- إنهم ليسوا نيامًا وإلاّ لما أزعجتهم بغنائي. تعالي اجلسي إلى جواري.

جلست جنبها، فانفضّت الصبايا اللواتي كنّ مجتمعات حولها، وما إن سمعت سيرانوش صوتي حتى خرجت من الكيس وزحفت صوبي وعانقتني.

كان عمرها مقاربًا لعمري، على أن جسدها كان مكتملاً تمامًا بعلامات البلوغ، متفتحًا كما تتفتح الصدفة عن لؤلؤها، وقد انحشر نهداها البكران النافران في ثوبها المحبوك من الصوف.

لم تكن صلتي بسيرانوش ترتقي إلى صلتي الحميمة بمريم، مع أنها كانت في صفي الدراسي، وودودةً إلى أبعد الحدود، وأحيانًا كانت تبدو طفلةً في تصرفاتها، كأن الرغبة في اللعب لا تزال كامنةً في داخلها؛ وطالما نبهتها مديرة المدرسة إلى أن لهوها مع البنات اللائي يصغرنها كثيرًا يضعها موضعًا غير حسن في نظر الناس.

لكن الحقّ أقول إن سيرانوش في تلك الليلة كانت كائنًا آخر، غير سيرانوش التي أعرفها؛ انكسر شيء ما في أعماقها، وودّعت اللهو، وتكدّر مزاجها الطفولي، وغزاها شعور بالحزن في رنة صوتها، وأضحت مثلنا، أنا ومريم، وجلةً تتفكّر في الأيام السود المقبلات.

اقتفى أبي أثري ليعيدني إلى مكاني، إلاّ أني توسلت إليه أن أبقى قليلًا مع مريم، فبدا حائرًا لا يعرف ماذا يفعل، خاصةً أنه يقدّر كثيرًا عمق علاقتي بها، وكان يوصلني، في بعض الليالي، إلى منزل أهلها ويمضي عائدًا، ثم يرجع بعد ساعة أو ساعتين ليأخذني خشية أن أتعرّض إلى مضايقة، أو يسمعني أحد المارة كلمةً، وأحيانًا كان يمكث مع أبيها وخالها، الأعزب الذي يقيم في احدى غرف البيت، يسترسل معهما في أحاديث من هنا وهناك، إلى أن أفارقها.

نشدته أن يُحضِر آرام وزاروهي، فوافق على كره، وذهب إليهما متثاقلاً، وعاد بعد قليل، متأبطًا البطانية وأكياس النوم، وفي أعقابه آرام يسحب الحمار من رسنه، ويحمل بيده مطارتَي الماء، بينما كانت زاروهي تمسك بحبل قصير في طوق زاديكيان، الذي بدا متوترًا، يهزّ ذيله، وحين لمحني هرع إليّ وأقعى لصقي، وأطرق برأسه إلى الأرض، وأرخى عينيه.

دعَونا ربنا ألاّ ينهمر المطر تلك الليلة، فاستجاب لدعائنا، لكن نقيق الضفادع كان يزعجنا، يترامى إلى مسامعنا بانتظام، ملحاحاً لجوجًا في السكون، متناغمًا مع بقبقات الماء حينما تقفز من اليابسة إلى الغدير.

يمكن الظن أن تلك الضفادع كانت تهزأ بمئات البشر المُزدَرى بهم، الذين ساقهم الدهر إلى تلك البريّة المنعزلة، وهم في درب الآلام، التي لم يكن بإمكان أيّ شخص أن يعرف بالضبط إلى أين ستفضى بهم، وإن كان يلوح في الأفق أنها ستنتهي إلى عذاب قاسٍ، مثلما انتهت الدرب التي سار فيها يسوع منذ لحظة الحكم عليه

وحتى صلبه وإعدامه، مع أن كلمة عذاب ليست في الحقيقة هي الكلمة الأكثر ملائمةً لوصف ما لقيه هؤلاء المنفيون من أهوال في تلك الدرب، أهوال أقل ما كشفت عنه أن الرحمة والمحبة والعدل والضمير محض كلمات فارغة.

سألت زاروهي أبي:

- لماذا تصدر الضفادع نقيقًا.

قال أبي:

- إنه غناء يصدره الذكور فقط، أما الإناث فتنقّ عندما تتعرض للأذى فقط.

- هل تتكاثر بالبيض أم بالولادة؟

- ماذا تقولين أنتِ؟

- كيف لي أن أعرف؟

ردّ أبي، مبديًا دهشته:

- حقًا؟ إنها تتكاثر بالبيض يا زاروك.

غفى الجميع حولنا، خلا مريم وسيرانوش وأنا بقينا نثرثر بهمس إلى أن لفظ القمر آخر ذرات الضوء على الأرض، فغلبنا النعاس واستسلمنا للنوم.

# (28)

خمد نقيق الضفادع صبيحة اليوم التالي، وحلّت محله زقزقات النوارس واصطفاقُ أجنحتها على سطح الغدير؛ محدثةً ضجّةً لم نعهدها من قبل، ومن بعيد كان يصل إلى أسماعنا نعيب غربان جائعة، كأنها استنفدت ما خبأتها من طعام في أوراق الشجر.

أخرج آرام رأسه من كيس النوم وألقى نظرةً عميقةً إلى الغدير، الذي اشتدّ ماؤه صفاءً في الصباح، وكأنه كان يحلم به، وأشار إليه بإصبعه متسائلاً:

- هل توجد فيه أسماك؟

رد أبي وهو يضيق ما بين عينيه:

- أسماك؟ ربما، لكن لماذا تسأل؟

فرك آرام أنفه:

- لا شيء، أردت فقط أن أعرف إن كانت الأسماك تعيش في المياه الساكنة أيضًا.

- ألم يعلّموك في المدرسة شيئًا من هذا.

- لا.

- حسنًا، إنها تعيش.

أزاح خال مريم كيس النوم عن رأسه، وتمطّى بأقصى ما استطاع، وقال متثائبًا:

- أنا أعرف أشياء كثيرةً عن حياة الأسماك. إنها تعيش في أي مكان يوجد فيه ماء، في الأنهار والبحار والمحيطات والغدران والمستنقعات والسبخات وحفر المياه الصحراوية، وتتكيف مع البيئة التي توجد فيها.

- وهل يحتوي الغدير على أسماك قرش أيضًا؟

- لا طبعًا، هذه تسكن المحيطات والبحار؟

نالت إجابة مارديك رضا آرام، فهمهم هازًّا رأسه، وحكّ رقبته وأردف:

- ليس من ريب في أن الأسماك أفضل منا، نحن لا نستطيع أن نعيش في الصحارى أو في الوديان أو في الكهوف.

قال أبي بنبرة واثقة:

- لكن غيرنا يستطيعون. نحن تكيّفنا على العيش في المكان الذي انتزعونا منه، ومشدودون إلى ذكرياته.

سألّ آرام بأسى:

- كيف نعيش إذن في المكان الذي سينفوننا إليه؟

تنهّد أبي وقال:

- الربّ لن يتخلى عنا، سيعيننا على التأقلم معه إن بقينا أحياءً.

كانت زاروهي تصغي إلى الحديث الدائر بين أبي وآرام، وحين سمعت عبارة «إن بقينا أحياء» لم تتمالك نفسها من الفزع، فرفعت رأسها، وغمغمت:

- إنك تخيفني يا أبي، هل يُحتمل أن لا نبقى أحياء؟

التفت إليها أبي وقال:

- لا تشغلي بالك بهذا الأمر يا زاروك، إنه كلام يُقال. الحياة والموت بيد الآب، وما أعلمه علم اليقين أن ربّنا يسوع لن يتخلى عنا قط، أليس هو شفيعنا وحامينا؟

رسمت زاروهي علامة الصليب وقالت:

- بلى.

أما أنا فقد وقع في نفسي شعور من اليأس، وتضاربت الأفكار في رأسي، وغلب عليّ الظن أن أبي أكثر إدراكًا منا بالمصير البائس الذي ينتظرنا، لكنه مثل أي أب يريد أن يجبر خاطر أبنائه في المصيبة التي حلّت بهم، وسبق فعل ذلك حين فقدنا أمّي في الطريق.

امتطى الجندرمة صهوات خيلهم، وراحوا يجأرون ويزمجرون؛ مصدرين أوامرهم لأفراد القافلة بأن ينهضوا ويواصلوا سيرهم. وحين هبّ الجميع، وصار أصحاب الدواب يضعون أمتعتهم على ظهورها تبيّن لي أن أُسرة مريم تمتلك بغلًا، فركبت هي وأختها على ظهره، وتكفّل خالها ماردیك بسحبه من رسنه، بينما آثرت أمها المشي على قدميها.

خلال ذلك الوقت بدأت تشق الطريق، بجوار القافلة، عربات

نقل محملة بتوابيت تجرها بغال، وأخذ حوذيوها يتصايحون، ويلقون التحايا على الجندرمة، وسمعت أحدهم ينادي الرقيب الأول، الذي كان على مقربة منا، «لِمَ لا تعيرونا بِضع صبايا نتمتع بهن في الطريق؟»، فأجابه في مزاج صفراوي غضوب «ليس لدينا صبايا للإعارة، إن أردتم الشراء فلا بأس». وما إن أنهى كلامه حتى ضرط بصوت عالٍ، فانفجر بالضحك بعض المُبعَدين الذين سمعوه، غير أن حوذيًّا آخر رفع قبعته المصنوعة من اللباد، وخاطبه عابثًا «اتقِ الله يا باش جاويش، إنهن محض أرمنيات لا يساوين مائة قرش». طفح الكيل برقيب ضخم الجثة، كان يرهف السمعَ، فعاجل الحوذي مدمدمًا «هذه كذبة كبرى يا سفيه، الواحدة منهن تساوي بضع ليرات»، وأطلق رصاصةً في الهواء، فشدّ الحوذي، من فوره، عنان بغلته، وضربها بسوطه لجعلها تسرع في جريها.

## (29)

عندما أوشكت القافلة بلوغ قرية صغيرة قبيل الظهر، عرج بها الجندرمة صوب ثكنة عسكرية تتّخذ من مبنى أثري مقرًّا لها، وأوقفوها أمامه. كان المبنى أشبه بقصر إقطاعي محاط بأسلاك شائكة، له باب خشبي عملاق، وعلى مقربة منه غابة كثيفة الأشجار.

ترجّل الرقيب الأول ذو الشاربين المعقوفين عن حصانه ودلف إلى المبنى، فلبثنا ننتظر، متوجسين من أن يقتنصوا عددًا من الفتيات كما حدث في المرة السابقة، وتحسّبًا للأمر سحب أبي بطانيةً وغطاني بها.

عاد الرقيب الأول، يرافقة رقيب أشبّ منه، بمفاجأة لم تخطر على البال، أمر بتقسيم المُبعَدين إلى قافلتين، ومن سوء الحظ أن أسرتي أضحت في القافلة الثانية وأسرة مريم في القافلة الأولى التي تتقدمنا.

لا أدري إن كان الرقيب الأول قد تعمّد فصلي عن مريم لأنه اغتاظ من وجودي معها الليلة الماضية، أم أن الأمر حصل صدفةً من غير تعمّد؟

عنّ لي أن أتوسل إليه بأن يضمنا إلى القافلة الأولى، على أنني

خشيت أن يكتشف من صوتي أنني بنت متنكرة بلباس ولد، فأوقِع نفسي في ورطة لا تُحمد عقباها.

نادى على رقباء القافلة الأولى ليمضوا بها، وأشار إلى رقباء قافلتنا، هازًّا هرّاوته في الهواء، بأن يتريّثوا حتى يصدر لهم أمرًا بالحركة. وقد تطلّب ذلك مهلةً من الزمن.

بعد نحو نصف ساعة أصدر الأمر، وكانت القافلة الأولى قد غابت عن الأنظار تمامًا، واستدار إلى الخلف وأدى تحيةً لضابط، لم أتبيّن رتبته، كان يقف أمام باب الثكنة، ثم امتطى حصانه.

وهكذا افتقدت صديقتي مريم مرةً ثانيةً، لم يبق لي سوى أمل ضئيل في حدوث لقاء ثانٍ بيننا، وكلّفني فقدها مزيدًا من الأسى والانكسار.

لاحظ أبي ذلك فأراد أن يخفف عني وطأة الحزن قائلاً «قلبي يحدثني أنكما ستلتقيان، فلا تيأسي يا لوسين، الربّ يراقب بينكِ وبينها حينما تتواريان بعضكما عن بعض. ثقي أنك ستلتقينها كما التقى بنيامين أخاه يوسف بعد فراق طويل».

لم يزرع كلام أبي بذرة أمل في نفسي. كنت أعرف، مذ بدأت أعي، أنه لا يفتأ عن استدعاء أمثلة من الكتاب المقدّس لإقناع الشخص القانط، فاقد الرجاء، وحملِه على انتزاع ما يجول في خاطره من أحاسيس وأفكار مجبولة بالمرارة والإحباط، أو تلطيفها في الأقل. وكان يعتقد بأن ما يقوم به من صلب واجبه الديني، على العكس من أمي التي كانت غالبًا ما تشاطر النساء من معارفها مشاعر اليأس والأفكار السوداوية، أو تحاول أن ترسّخها في نفوسهن، وتوحي لهن

بأن مآلهن إلى الخيبة. وكان ذلك بحد ذاته يزيد من إحباطهن، ويجعل أحوالهن تسوء أكثر. أتذكّر كيف صدمت راشيل، ذات مرة، حين كانت في زيارة لبيتنا، قائلةً لها إن زواجها أمسى ضربًا من المستحيل، إلاّ إذا قبلت برجل من غير دينها، حتى إن كان أرمل يكبرها بعشر سنين، وله دزينة أولاد، فجلّلت العتمة وجه راشيل، وأطرقت رأسها يائسةً، ثم انصرفت دون أن تتلفظ بكلمة. ومن يومها انقطعت عن المجيء إلينا، فصرت أنا أزورها كلما أشتاق إليها.

كنت أتعاطف مع راشيل أكثر من أختها أستير، رغم نزقها، ففي داخلها قلب حي نابض بالمحبة، وفي فمها لسان عذب، بينما كانت أستير تبدو لي، بسبب أنانيتها، كما لو أنها تحمل قلباً يعمل ببطارية. والغريب أن أمي لم تكن تصفعها بكلام محبِط على غرار ما درجت عليه مع النساء الأخريات، ولا تخوض معها حديثًا يضمر تشجيعًا لها على المضي في تذمّرها وشططها، بل تكتفي بعبارات مثل «لا يساورني شك في ذلك»، و»ربما تكونين محقةً»، و»أنتِ أدرى بما يلائمك». لعلّ أمي كانت تتحاشى بذلك إثارتها بسبب صعوبة إسكاتها إذا بدأ لسانها يطلق حممًا.

اخترقت قافلتنا وسط القرية، فراح أهلها يحدّجوننا بنظرات استنكار، وفي جو من الهياج غدت جمهرة من الأولاد العابثين يرشقوننا بالأحجار، وكأننا أبالسة. وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، لأن الاتحاديين أشاعوا في جميع أنحاء البلاد أن الأرمن خونة وينبغي طردهم.

أصابت أحجار الأولاد بعض المُبعَدين في أذرعهم وأكتافهم

وسيقانهم، وكان أخي آرام واحدًا منهم، جاءت إصابته في كتفه، لكنها كانت طفيفةً، ومع ذلك استبد به الغضب، وصاح بصوت قوي ملتاع:

- أولاد عاهرات.

طبطب أبي على ذراعه، ونهره قائلاً:

- حذارِ يا بني، إنك تستثيرهم، كيف يسعك أن تتلفظ بهذه الألفاظ، مَن علّمك إيّاها؟

- هل تريدني أن أشكرهم؟

- لا تشكرهم ولا تشتمهم، إن الله في عليائه يراهم ويسمعهم، ولن ينجوا من حسابه.

- اللعنة عليهم إذن!

كان الرقيب الأول على مقربة من آرام، وقد سمعه وهو يشتم الأولاد، إلاّ أنه لم يبدِ أية ردة فعل! بل لكز حصانه وابتعد.

واصل أبي لومه ونصحه لآرام:

- لا يغلبنّك الشرّ بل اغلِب الشرّ بالخير.

ردّ آرام متسائلًا:

- ألم يشجب يسوع الشرور؟

- بلى.

- هل تغاضى يومًا عن الوقاحة؟

- لا، على أنه قال مَن لطمك على خدّك الأيمن فاعرض له خدّك الأيسر.

- هؤلاء السفلة لم يلطموا خدي بل رجموني بحجر.

- لا فرق.

لم أشأ أن أتدخّل في مجرى حديثهما، مع أني مِلت إلى ردّة فعل آرام، ولم يسعني إلاّ أن أحترم موقفه وتساؤلاته؟

بعد دقائق رجع الرقيب الأول، وجعل حصانه يدبّ بمحاذاة حمارنا، وبغتةً رفع هراوته، وعيناه تقدحان شررًا، وأمطر آرام على رأسه بوابل من الضربات المتلاحقة أسقطته على الأرض فاقدًا الحس والحركة. عاطت زاروهي، وكدت أعيط أنا أيضًا، غير أني تمالكت نفسي لئلا ينكشف صوتي الأنثوي، ويُفتَضح أمري. أما أبي فقد فزع، وصاح مستغيثًا بالله «يا رب العباد» (تعمّد ألاّ يستغيث بيسوع كي لا يهيّج الدركي)، وجثى على ركبتيه، ورفع آرام عن الأرض وطوّق عنقه بذرعه، وصار يطبطب على خديه ويدلك صدره لإفاقته، مثلما فعل مع أمي، وأخذ زاديكيان يلعق قدميه ويحركهما بخطمه. وحين لم يأتِ آرام بأية حركة تناول أبي مني مطارة الماء وسكبها على رأسه، لكن من غير جدوى، فالضربات كانت شديدةً، ولا بد أنها أحدثت ارتجاجًا في مخّه.

يعد دقائق اقترب منا أحد الرقباء، وفي عينيه بريق متوقّد، حقود، وترجّل من حصانه ونغز أبي في خاصرته بأخمص بندقيته، وزعق بعنجهية:

- انهض أيها الخنزير واتركه يفطس.

لكن أبي أرخى جسد آرام على الأرض، واستدار إلى إلعريف، والشرر يتطاير من عينيه، ورماه ببصقة قوية سالت على بزّته،

فأدركت أن أبي فقد شعوره، ونسي عظته لآرام قبل قليل بألاّ يغلبنّه الشرّ.

استثير العريف غضبًا، وسدد بندقيته إلى أبي وأطلق رصاصةً على رقبته صرعته حالًا، وجعلت دمه ينبجس في غزارة على الأرض، ثم صوّبها إلى آرام وأطلق رصاصةً ثانيةً اخترقت ظهره، وضرب مؤخرة الحمار بهرّاوته، فاستأنف الحيوان سيره صاغرًا. أما الكلب فقد هاج وتلوى وراح يقفز في الهواء معبّرًا عن سخطه، ولبث إلى جوار آرام ينبح بصوت حزين فيه لوعة الحب والوفاء.

حين وقعت الفاجعة تسمّرت على ظهر الحمار؛ شاعرةً بفائرة غضب تأكل صدري، وبأن مخي يتطاير ببطء من رأسي، لكني كتمت صوتي مرةً أخرى، وبقيت مثل حجر صلد، أحمل قلبًا مكبّلًا، رغم أنني كنت على يقين مبهم بأن تصرّفي لا ينطوي على أي شرف من أجل غريزة البقاء حيةً، أو دفعًا للاغتصاب.

استمرّ طيف ذاك الموقف يطاردني بضعة أعوام، يرمض روحي، ويؤنب ضميري، وها أنا ذا أستذكره الساعة، وأتقطّع من المرارة، وأتساءل: هل كان تصرّفي مشينًا؟ هل أتيت أمرًا منكرًا إلى حد فظيع؟

# (30)

أشعر بأن سنوات طفولتي انقضت بطرفة عين، بل أحيانًا أشعر بأنني بلا عمر. قبل ذهابي إلى المدرسة، عندما كنت في الخامسة أو نحو ذلك، عانيت من مشكلة مزعجة، كنت أتلعثم لدى نطقي ببعض الكلمات، ما جعلني أتجنب الكلام أمام الغرباء، وأنكمش لا شعوريًا على نفسي، وأظل أحيانًا ساعةً كاملةً لا أتلفّظ كلمةً واحدةً، كاللص الذي يشكّ حتّى في نفسه، أكتفي فقط بالإصغاء إليهم، وأوزع نظراتي الكابية عليهم، فيتبادر إلى أذهانهم أنني ذات طبع صموت. وحين كان يسألني أحدهم سؤالاً يستدعي إفاضةً في الإجابة أردّ عليه باقتضاب. على أنني بدأت أتحسن شيئًا فشيئًا لما بلغت السادسة، وعندما صار نطقي سليمًا، لا غبار عليه، اعتراني إحساس بأنني ولدت من جديد.

من باب العرفان، لا بدّ أن أعترف بأنني مدينة لصديقتيّ هوري وسيرفارت، اللتين كان لهما دور في تغلبي على تلك المشكلة. كانتا أكبر مني سنًّا، صخّابتين، منمقتَي اللسان، تجتمعان إليّ كل يوم، صحبة ثلاث أو أربع من بنات الحي، تحت شجرة الرمان في باحة منزلنا، وتفرطان في الكلام كأنهما آلة تطلق شررًا.

كانت أمي تراقبنا عن بعد، وتتبسم أحيانًا، ولم يخطر ببالي أنها هي التي كانت ترتّب تلك اللقاءات لغاية في نفسها، وعندما تحقق هدفها صارت تحدّ من مجيئهن إلى المنزل.

أتذكّر أنها مرةً طردت شقيق سيرفارت الذي حضر معها، قائلةً له «عيب! لا يجوز أن يلعب الأولاد مع البنات، اذهب إلى أصحابك والعب معهم». إلا أنها أخبرتني، بعدما فارقت صديقاتي منزلنا، بأنها فعلت ذلك لسبب آخر هو كونه ولدًا عابثًا، كثير الحركة، يتسلق شجرة الرمان ويكسر أغصانها!

كانت هوري ذات عينين زرقاوين، بدينةً تشبه قسماتها قطةً حبلى، حادة الطبع، تبذل قصارى جهدها لتتصنع في الكلام مثل امرأة بالغة، ولا تتوانى عن نعت مَن لا تجاريها بـ«يا حمارة»! سمعتها أمي ذات يوم توجّه هذه العبارة إلى واحدة من البنات، فنهرتها قائلةً «إذا كانت هي حمارة فأنت دُبّة». بلعت هوري ريقها وغطّت عينيها براحة يدها شاعرةً بالخجل.

حين بلغت هوري عامها السابع عشر فقدت كثيرًا من وزنها، وصارت مخلوقةً جميلةً، قوامها مثاليًّا وانحناءات جسدها رائعةً. كما تغيّر طبعها، وغدت عذبة اللسان. أحبها شابٌّ من أهل الحي، على علاقة وثيقة بآرشاك، وخطبها من أهلها، وكان يستعد للدخول بها قبيل أيام من إبعادنا.

يا الله، كأني لمحتها بين البنات اللواتي خطفهن الجندرمة من القافلة وأدخلوهن الثكنة.

أما سيرفارت، فقد كانت، رغم صخبها، نقية القلب، تتصرف

على سجيّتها، لا تنعت أحدًا بكلمة سوء، جمالها أقل من جمال هوري، لكن بالمقابل تتميز عنها بخفة دمها وطولها، وتتفوق عليها في ذكائها. أدركتني في الدراسة بعد انقطاعها نحو سنتين بسبب وفاة أمها، وعادت عندما اقترن أبوها بإمرأة أخرى.

# (31)

عندما أستعرض في ذهني كيف نجوت، وكيف أوصلني القدر إلى أمي جوري في الموصل، تزداد قناعتي بأن الحياة لغز كبير.

كان بيني وبين الموت خيط أرفع من شعرة.

يا إلهي، بأي كلمات معبّرة أستطيع أن أصوّر اللحظة التي أوشكت فيها على الغرق؟

كانت القافلة قد بلغت عصر اليوم التالي بلدةً يفترعها نهر كبير، تترقرق على مياهه قوارب صيد الأسماك، وحين صارت تدبّ على مهل فوق الجسر لحق بها فرسان مسلّحون ببنادق، يلفون أجسادهم بأمشاط الرصاص. أسرع بعضهم إلى مقدمتها وأمر المُبعَدين بالتوقف، بينما أحاطها بعضهم الآخر من طرفيها. بدأ المسلحون يتكلمون مع الجندرمة، ويضعون في أيديهم صررًا صغيرةً، لا يزيد حجم الواحدة منها عن حجم الكف، لا نعرف ما بداخلها. شعرت من فوري بأن خطراً ما يداهمنا، فتولاني الخوف، وشبكت يديّ حول بطن زاروهي.

بعد مرور دقائق اقترب منا أحد الرقباء، وهبّ واقفًا على سرج حصانه، وأمسك بذراع زاروهي محاولًا سحبها من ظهر الحمار.

حاولت أن اتشبّث بها بكل ما فيّ من عزم، إلاّ أنه شدها إليه بحركة قوية وطرحها أرضًا، فترجّل مسلح قوي البنية عن حصانه في الحال، واندفع نحوها، وانقضّ عليها، وحملها من وسطها ومضى بها؛ مقهقهًا كمن ظفر بصيد ثمين، بينما كانت هي تقاوم وتصرخ صراخًا يمزق نياط القلب، وتدعوني إلى إنقاذها.

مباشرةً بعد اختطاف زاروهي التفت إليّ الرقيب السافل ونبح بشراسة كلب مسعور، ووثب من حصانه هائجًا، وانتزعني من ظهر الحمار، كأنما ينتزع دميةً، ورفعنى إلى أعلى ما يستطيع، وقذفني في النهر، مثلما يقذف شِوالًا معبأً بتمر فاسد في حاوية قمامة.

لا بدّ أنه اعتبر تصرفي وقاحةً، وأراد أن يذلّني بمأثرته.

سقطت، مغمضة العينين، مثل كرة بلا وزن، أتقلّب في الهواء الذي يترقرق حول جسمي، ودهمني في لحظة خاطفة منظر الفتيان الذين قفزوا من الجسر الحجري إلى النهر.

هل شعرت بأني سأغرق لا محالة لأني لا أجيد العوم؟

هل استيقنت أن رأسي سيرتطم بصخرة مميتة في القاع؟

هل علّقت أملي على معجزة تنقذني؟

لا أدري، ربما دهمني كل ذلك دفعةً واحدةً وأنا أخرّ إلى الماء. لكن ما حدث لم يكن في الحسبان، فما إن ضربت بقدميّ قاع النهر حتى ارتفعت إلى السطح، وشرعت أطرافي تتحرك، تعلو وتهبط، مثل طائر جريح، وأغلقت فمي لئلا ينفذ الماء إلى جوفي. لم يستغرق نزاعي وقتًا طويلًا مع الأمواج، التي كانت تحاول أن تصرعني، وأنا أحاول جاهدةً أن أتغلّب عليها، فقد انتشلتني، فجأةً،

أيادٍ رحيمة، وأنا في النزع الأخير، ووضعتني على متن قارب خشبي (أكانت هي المعجزة التي علّقت أملي عليها؟).

بعدما صرت على اليابسة، واستعدت أنفاسي تبيّن لي أن الأيادي القدسية البيضاء التي انقذت حياتي كانت لاثنين من صيادي السمك في النهر، أحدهما في منتصف العمر والثاني فتى في سن آرام تقريبًا. رطنا معي بلغة لم أفهمها، فبقيت مبهوتةً، وأومأت إليهما، بينما لا تزال أطرافي ترتجف من الخوف والبرد، بأنني لا أجيد لغتهما. عندئذ تساءل الفتى بتركية تشوبها لكنة خفيفة:

- أتعرفين اللغة التركية؟

قلت:

- إي أعرفها؟

- إذن أنت تركية؟

- لا، أنا أرمنية، وأنتما؟

- نحن أكراد من عشيرة الكيكية، إلاّ أننا جميعًا نجيد التركية. هذا أبي الحاج لقمان وأنا اسمي آزاد، وأنت ما اسمك؟

- لوسين.

- اسم جميل.. حمدًا لله أننا كنا قريبين منك. عندما انتشلناك من الماء ظننا أنك ولد.

شكرتهما، وقلت:

- ربنا أرسلكما وإلاّ كنت الآن ميّتةً.

قال الأب لقمان:

- الربّ لا ينسى عباده. لكن لماذا تتخذين هيئة ولد بقصة شعرك ولباسك؟

نبهني سؤاله إلى أن لثامي وأشيائي التي كنت أحملها قد اختفت في الماء. أجبت:

- لكي أحمي نفسي من الجندرمة العثمانيين.

- ذكية! ستأتين معنا إلى البيت حتى نعطيك من ملابس ابنتي، وتستروِحي وتأكلي السمك من يد خالتك أم آزاد.

- هل ابنتك في عمري؟

- كم عمرك أنت؟

- خمسة عشر عامًا.

- ابنتي أكبر منك بعام واحد، وهي توأم آزاد.

- هل ستصونني مثلما تصونها؟

- لا بل أكثر يا ابنتي.

- ما اسم هذه البلدة؟

- اسمها البيرة.

منحني كلامهما شعورًا بالراحة والطمأنينة، فرافقتهما في عربتهما، التي يجرها كديش رمادي، على شيء من الهزال، يشبه كديش كاهن الكنيسة. كانت العربة، وهي من ذوات الأربع عجلات، تأرجح وتتقلقل، وتصدر صريرًا يطرق أذني، وعلى ظهرها ثلاث سلال معبأة بأسماك ذات أحجام وألوان مختلفة، نفذت رائحتها الحرّيفة إلى أنفي.

قلت للأب، بعد أن قطعت العربة شوطًا قصيرًا:

- عمي، منذ متى تعمل صياد سمك؟

- منذ زمن طويل، ورثت المهنة أبًا عن جد.

- هل فيها متعة؟

- لا، إنها مهنة شاقة، لكن ليس لي خيار غيرها.

- هل تصيدون يوميًّا؟

- لا، ثلاث مرات في الأسبوع، وإذا خرجنا يوم الجمعة لا نتأخر إلى ما بعد صلاة العصر. نكتفي بما مقدّر لنا الفوز به ونعود أدراجنا. على أن من حسن حظك أننا تأخرنا اليوم، ربما ألهمنا الله البقاء حتى الساعة لنكون سببًا في نجاتك من الغرق. وكما ترين أغدق علينا من نعمته، وآتانا من فضله بصيد وفير.

- أول مرة في حياتي أرى أسماكًا بنيةً وسوداء، هل كنت سأغدوا طعامًا لها لو أني غرقت.

- لا، الأسماك لا تأكل من لحم الإنسان، لأنه ليس جزءًا من بيئتها المائية، ولا من غذائها الطبيعي.

- حقًّا؟ لماذا نأكلها إذن ونحن لسنا مخلوقات مائيةً؟

- لأن قلوبنا قاسية، وبعضنا لا يختلف عن الوحوش والضواري.

- يا الله، ما أتعسنا!

- بما أنك مسيحية فلا بد أن كتابكم تحدّث عن قساة القلوب.

- كان أبي يقول لنا إن المسيح أشفق على الزناة والخطاة، وقبِل دموع التائبين منهم، وعاملهم في تحنان، لكنه لم يكن يقبل القساة مطلقًا، بل كان يوبّخهم بشدة.

- هذا أقل ما يستحقونه.

## (32)

رحّبت بي السيدة آمنة، زوجة العم لقمان، وابنتها بهار، وأسرعت الثانية إلى نزع أسمالي الذكورية المبللة بيديها، وأعطتني بعضًا من ثيابها الكردية المصنوعة من أقمشة مشجّرة، ولفّت رأسي بمنديل فاتح الزرقة عليه ورود حمراء وبنفسجية، وعقدته من الخلف بإحكام.

كانت بهار أكثر بياضًا من أخيها آزاد، مستقيمة الصدر، ذات وجه مستدير تكسوه بثور تسرق نضارته، وفم بالغ الصغر بلون الكرز، ونظرة يائسة. لم تكن تجيد القراءة والكتابة لعدم وجود مدرسة للبنات في البلدة، إلاّ أنها كانت تحفظ آيات من القرآن والحكايات الساحرة. أما أمّها فكان وجهها شاحبًا، مبقّعًا عليه آثار طفح جلدي قديم، ذات عينين غائرتين، وفي فمها سنّان ذهبيان، تقضي معظم وقتها في غزل الصوف، وعندما تتجمع لديها كمية من الخيوط تصبغها بألوان مبهجة، وتتولى بهار حياكتها.

كانت البنت تندمج في مهنتها، تنغمس فيها تمامًا وتبدّد بها وحدتها. قالت إنها تعلمتها منذ الصغر وهي تراقب أنامل أمها كيف تنقل الخيوط بالصنارة، وتحيك منها كنزات وشالات وأوشحةً

وجواريب وشراشف جميلةً بحركات فنية سريعة، وعندما أصبحت محترفةً في عملها أقبلت نساء الحارة على شراء منتجاتها.

رغبتُ في تعلم المهنة من بهار، كي أساعدها، فاستحسنت الفكرة، وشرعت في تعليمي أسسها مثل معلمة حريصة، غير أنني سرعان ما ضجرت منها.

لم يكن ثمة شبه بين منزلنا ومنزل العم لقمان، فهذا منزل عتيق مشيد باللّبِن المضروب من الطين غير المشوي، له سور عالٍ، ويخلو من شجرة رمان، وفيه رائحة عطن من كثرة الأسماك التي تدخله. يتألف من ثلاث غرف للنوم، واحدة للزوجين، والثانية لآزاد، والثالثة لبهار، وباحة خصصوا جزءًا منها لزراعة الخضار كالبصل والطماطم والفجل والرشّاد، تضللها شجرة توت ضخمة يُسمع حفيفها عندما تهب صوبها دفقات من الهواء.

قالت الخالة آمنة، وهي تقدم لي طبق سمك مع بصل أخضر:

- كلي ابنتي، لا بدّ أنك الآن تتضورين جوعًا. شويتها لك بالتنور. نحن هنا أغلب طعامنا من خيرات مزرعتنا الصغيرة، ومن النهر الذي كاد يبتلعك. نِعَمه كثيرة وجوارحه أيضًا لمن لا يُحسن ارتياده. بارك الله فيه، إنه الدم الذي يغذي أجسامنا، لولاه لما استطعنا أن نتغلب على المجاعة في هذا الزمن العصيب. كل شيء أصبح نادرًا مذ بدأت الحرب، افتقدنا الخبز والسمن والشاي والسكّر، وصار الجوع في بعض المناطق النائية يفتك بالناس، ويخرج أرواحهم من أجسامهم.

قلت، وآنا آكل بلذة:

- أعانكم الله يا خالتي.

أكملت:

- ليس الجوع فقط ما ينال منهم، بل الأوبئة أيضاً، أبعدنا الله عن شرّها. لكن قولي لي لماذا وثبت إلى النهر من فوق الجسر وأنت ما زلت غضة العود؟ الانتحار حرام يا ابنتي.

- أوتضنين أنني أردت الانتحار؟ ألم يخبرك عمي لقمان؟

- لا، قال لي أنقذنا هذه الصبية الأرمنية من الغرق، اعتنِ بها مثلما تعتنين بابنتك. هذا ما قاله فقط.

- ألم يقل لك إن رقيبًا من حرّاس القافلة العثمانيين رماني من الجسر؟

- أية قافلة؟

- قافلة المُبعَدين الأرمن.

- هل أخبرتِه بذلك؟

- لا لم أخبره، حدست أنه عرف من تلقاء نفسه.

- ربما لم يخطر بباله. إنه رجل طيب يحظى بأعلى احترام وتقدير من جميع أهل البلدة، ماذا كنّا نفعل لولاه، لذا فإنه لا يتصور أن ثمة إنسانًا تبلغ به القسوة إلى هذا الحد.

- إلى هذا الحد؟ لا يا خالتي، لقد تجاوزت أفعالهم هذا الحد، ماذا بوسعي أن أحكي وأروي لك؟

- صدقتِ يا ابنتي، إنهم خنازير، لقد فعلوا أسوأ من هذه الفعلة. هنا في البيرة وفي القرى المجاورة علّقوا شبّانًا في عمر الورود على المشانق، أحدهم ابن عم آزاد، شنقوه الشهر الفائت

ومثلوا بجثته، فقط لأنه احتج عليهم وشتمهم عندما صادروا محاصيل فلاحي قريته. كان وحيدًا لأمه، وعندما وصلها الخبر جُنّت ومزّقت ثيابها.

- ماذا أحكي لك أنا يا خالتي؟ مصابي أعظم مما تتصورين. أمس قتلوا أبي وأخي أمام عينيّ، واليوم باعوا أختي الأصغر مني إلى قطّاع الطرق على الجسر. كنّا أنا وإياها على ظهر الحمار، وحين حاولت أن أتمسّك بها انتزعني ذلك الرقيب وألقى بي في النهر كمن يلقي حجرًا في قعر بئر.

- فليعنك الله على هذا المصاب، ولينتقم منهم، إنه ناصر المظلومين.

بعد تناولي وجبة السمك استغرقت في نوم طويل، خمس أو ست ساعات، وعندما صحوت سألت السيدة آمنة:

- أُسرتكم صغيرة، هل لديكم أولاد متزوجون؟

- بنتان متزوجتان، وابني الكبير ذهب إلى الحج قبل بدء السفر برلك، صحبة أبيه، ومكث في الحجاز. يقول عمك لقمان إنه وجد عملًا في مزرعة لأحد الشيوخ فآثر البقاء هناك. كانت السلطنة وقتها تنوي إرسال عساكرها للمشاركة في الحرب فخاف أن يجندوه. حسنًا فعل، لو أنه عاد لكان الآن في عداد القتلى.

تذكّرت مقتل آرشاك، فقلت لها:

- في ديارنا كان المسيحيون دون سن التجنيد يُقتلون أيضًا برصاص الجندرمة إذا رفضوا الالتحاق إلى طوابير السخرة، وقد رأيت

بأم عيني مقتل اثنين منهم كان أحدهما ينوي أن يتزوجني السنة القادمة.

- خنازيز، خنازيز، خنازيز.

- ليتهم خنازير يا خالتي، إنهم وحوش.

- وما الفرق بين الخنازير والوحوش؟

- الخنزير ليس مؤذيًا. اعذريني، أعرف أنكم تمقتونه، أقصد تحرّمون أكل لحمه لسبب ديني.

- كيف ليس مؤذًيا؟ أليس حيوانًا مفترسًا مثل الضبع والذئب؟

- ربما ذاك الخنزير البري، أما الذي يتربّى في البيوت حاله حال الغنم والبقر فإنه أليف.

- والله يا ابنتي لا أعرف، هكذا علّمنا أهلنا.

- أقدّر ذلك، في بلدتي كان المسلمون يعتقدون مثلكم تمامًا.

- دعينا من هذ الحديث الآن ولنفكّر في أمرك، أنت صبية عاقلة، وأرجو أن ترضي بقسمتك فلا تخرجي حتى إلى باب الدار. تسامري مع بهار، ولا تختلطي مع آزاد على انفراد، الشيطان يتمكّن من الشبّان أكثر من الكبار، ولا طاقة لكما على مقاومته.

فزعت:

- هل يوجد شيطان في بيتكم؟

- يا لك من هبلاء!

## (33)

جمعتني ببهار غرفة واحدة مفروشة بالحصران والبُسط والحشايا. تعاطفت معي كثيرًا منذ لحظة وصولي، وسرعان ما صرنا صديقتين مقرّبتين، لا تخفي احدانا شيئًا عن الأخرى. عندما كنا نأوي إلى النوم تغلق باب الغرفة بإحكام، وتطفئ القنديل الزيتي، ونواظب على الحديث همسًا في الظلمة، لئلا يسمعنا أفراد البيت، هي تعبّر لي عما يجول في نفسها، وتفشي أسرارها، وأنا أبوح لها بأسراري. أتذكّر من بين ما أسرّتني به أنها تقيم علاقةً غراميةً مع شاب من أقربائها في سن العشرين، دون علم أهلها، وراحت تعدد صفاته وترسم له صورةً مثاليةً، غير أن ما يؤلمها أنه مجنّد في الجيش، ولم تره منذ بضعة شهور، يعذبها شوقها المدحور له، وتخشى أن تُفجع بموته وتفقد صوابها.

رغم إحساسي بجسامة الهاجس الذي كان يمور في رأسها، جراء غياب حبيبها في الحرب، لم يكن بوسعي، وأنا أصغر منها، إلاّ أن أغذّي فكرة محو مخاوفها:

- ليس أمامك من سبيل يا بهار سوى الصبر.

غير أنها ردّت عليّ:

- الصبر؟ هل يوجد في الدنيا أمرّ من الصبر؟

منّيت نفسي صبيحة يوم الأحد بحضور القدّاس، والصلاة من أجل أُسرتي التي فقدتها. قلت للخالة آمنة:

- أريد أن أسألك سؤالًا لكنني أشعر بالحرج.

قالت:

- أنا بمنزلة أمك، اسئلي من غير حرج.

- هل جميع أهل البيرة مسلمون؟ أقصد هل يوجد فيها مسيحيون؟

- أغلبهم مسلمون، والباقون مسيحيون وقليل من الدونمة الذين يعيشون في عزلة؟

- ما معنى الدونمة؟

- لا أعرف معناها بالضبط، لكن الناس يقولون إنهم مسلمون في الظاهر ويهود في الباطن، مسلمون مع المسلمين ويهود مع اليهود، وأغلبهم يعمل في التجارة.

- لماذا يخفون معتقدهم؟ في بلدتي لا يفعلون ذلك، ولم يمسهم العثمانيون.

- لا أدري، ربما يريدون الكيد للمسلمين، والله أعلم. ما اسم بلدتك؟

- سِيفان.

هل يوجد فيها نهر؟

- لا، نهر الفرات يحيطها من الشمال، وهي مبنية فوق تل،

وتنحدر جنوبًا إلى سهل، وعلى يمينها هضبة شاسعة تتخللها أودية، وتنتهي من جهة الغرب إلى غابة.

- أهي بعيدة؟

- إي، استغرقت المسافة إلى هنا خمسة أيام.

- منذ خمسة أيام والقافلة في الطريق؟

- هلك الكثيرون من كبار السن والمرضى.

- إلى أين يسوقونها؟

- لا أحد يدري، إلاّ أن أبي خمّن أن وجهتها ستكون بادية الشام.

- ما زال أمامها طريق طويلة، ومن المؤكد أن آخرين سيهلكون أيضًا.

- ليحفظهم الله. كم أود أن أصلي من أجلهم ومن أجل الذين قُتلوا وخُطفوا.

- وما الذي يمنعك من الصلاة؟

- هل توجد كنيسة في البلدة؟

- آه، تريدين الذهاب إلى الكنيسة؟

- أتمنى ذلك، اليوم بالذات لأنه يوم قيامة المسيح من بين الأموات.

- أنتم تؤمنون إذن بأن النبي عيسى مات ثم أحياه الله؟

- نعم، نحن نعتقد بأن الرومان صلبوا يسوع يوم الجمعة بعد أن قدمه رؤساء كهنة اليهود للحاكم الروماني بتهمة أنه يحرض

الشعب على القيصر، وفي اليوم الثالث، أي في مثل هذا اليوم الأحد قام من بين الأموات.

- لا أدري بماذا أردّ. على أية حال توجد كنيسة واحدة قريبة بميسوري أن أخذك إليها. لكن يجب أن ترتدي عباءةً كي يظن مَن يصادفنا في الطريق أنك من صلبنا، وكوني حذرةً داخل الكنيسة، فلا تخبري أحدًا بأنك أرمنية، الناس لا يمسكون ألسنتهم، وأخشى أن يبلغ خبرك أسماع الجندرمة، عندئذ تضيعين، ويقبضون علينا نحن فنقضي حياتنا في السجن، إن لم يجلوسنا على الخوازيق عقابًا لنا.

- ما أشنعهم! سمعت أنهم مارسوا هذه الفعلة مع عدد من الثائرين الأرمن.

- مَن يردعهم؟ لا الدين ولا الضمير.

- هل سترافقنا بهار؟

- لِم لا؟ أبدو حمقاء لم إن لم نخذها معنا، في الأقل تؤانسني وأنا أبلي مؤخرتي جالسةً أهش الذباب في فناء الكنيسة إلى حين خروجك.

صمتت الخالة آمنة برهةً ثم سألتني:

- كيف تصلّون في الكنيسة، هل تسجدون لله مثلنا أم لتمثال النبي عيسى؟

- لا، نحن نقدّم الشكر والحمد لله، ونسأله غفران خطايانا، ونرفع أمامه طلباتنا وتضرعاتنا، نكلّمه ونشعر بروحه تقودنا وترشدنا، وتصغي إلى صلواتنا إصغاء الأب الحنون.

- لكنكم تؤلّهون النبي عيسى، وهذا إشراك بالله الأحد!

- أبي رجل دين، سمعته أكثر من مرة يقول إن المسيح واحد في ألوهيته مع الله، لكنه تجسّد في صورة إنسان.

- أرجو أن لا تزعلي يا لوسي، هذا الكلام لا يدخل عقلي.

- اسمي لوسين يا خالة.

- لوسي أحلى، وأسهل نطقًا.

- كما تشائين.

أشاحت بنظرها عني، وحدّقت إلى الفراغ، ثم سألتني:

- هل تتوضؤون قبل الصلاة؟

- نحن نؤمن بأن الله لا ينظر إلى خارج الإنسان بل إلى داخله، أي فكره وقلبه، دون إهمال شكله الخارجي. إنه يريدنا أنقياء من الداخل كي يُسَرّ بصلواتنا، وتكون مقبولةً عنده، ويرضى بها، ويستجيبها بحسب مشيئته.

سمعنا طرقات على الباب الخارجي، فأمسكتُ عن الكلام، ورمت الخالة آمنة مغزلها جانبًا، ووضعت حجابًا على رأسها، وطلبت مني أن ألزم مكاني داخل البيت، وهرولت لتفتح الباب. تطلعت إليها من النافذة، بكثير من الحذر، فإذا بجارتها تسألها عن أمر ما.

# (34)

قرابة منتصف الصيف، سبّب فرار مجندي العبودية من المناطق الخاضعة للسلطنة جنون قادة الجيش، فأصدروا أوامرهم للجندرمة بشنّ حملات تفتيشية في البلدات والقرى للقبض عليهم. أول ما فعله هؤلاء الجندرمة أنهم أمروا الأهالي بلزوم منازلهم مرتين في الأسبوع، وعندما كانوا يختارون حارةً معيّنةً يأتي فوج منهم، بغتةً، ويطوّقها من جميع الجهات، ويتولى فوج آخر اقتحام المنازل بحثًا عن المجنّدين الفارين.

هجس العم لقمان خيفةً من اكتشاف الجندرمة وجودي في بيته فيقبضون عليّ، خاصةً أن المحليين منهم يعرفون أفراد أسرته. اقترحت عليه بهار أن يودَعني لدى بيت خالتها في قرية مجاورة للبيرة حتى تنتهي الحملة، غير أن العم لقمان لم يستسغ اقتراحها، قائلًا إن الحملة تشمل القرى أيضًا.

ظل طوال النهار يشفط غليونه، على غير العادة، ويقلّب في رأسه طائفةً من الأفكار، وأخيرًا استقر على فكرة ضمّي إلى قافلة جماعة من الغجر «الدومر» يمكنهم إيصالي إلى ولاية الموصل. أعلن عن فكرته أثناء اجتماعنا لتناول العشاء، فكانت مفاجأةً للجميع.

قلت له:

- أنا أضمر لكم كثيرًا من الحب يا عمي، فهل ضقتم ذرعًا بي، هل صرت عالةً عليكم؟

قال:

- لا يا ابنتي، حاشا لله، أكون حقيرًا إن كان هذا ما يدفعني إلى إبعادك. لكن ما الذي يتحتم عليّ أن أفعله؟ الضرورة تُكرهني على ذلك. أخشى عليك وعلى أنفسنا. كل يوم يتعاظم خوفي من أن يكتشفوا وجودك في بيتي بعدما بلغ سعار جندرمة العثمانيين إلى درجة تفتيش بيوت الناس.

- أقدّر خوفك، رغم أنني كنت موقنةً بأنني سأكون في نجوة من الأذى طوال بقائي بين ظهرانَيْكم.

- ستكونين في نجوة أكثر إن رافقتِ جماعة الغجر.

قال آزاد، الذي كان قد بدأ منذ فترة يظهر مشاعر عاطفيةً تجاهي، ويسمعني كلمات غزل، بينما كنت أتجاهل أنا انشداده إليّ:

- الأتراك ينعتون هذه الجماعة بـ»جنغنة»، وهي صفة تحمل معنى بغيضًا، وسمعت أنهم يخطفون البنات الجميلات.

أدركت أنه يريد إخافتي، ويسعى إلى إبقائي معهم، وهو لا يعلم ما أكتمه في صدري من حزن على فقدي فتى غرامي آرشاك. ويبدو أن العم لقمان لم يكن غُفلًا عن محاولات ابنه خطب ودي واستمالتي إلى قلبه، فردّ عليه:

- حسنًا أيها الفهيم، إن نعت الجماعة بهذه الصفة لا ينتقص منهم، بل يشير إلى سوء خلق ناعتيهم. أما اتهامهم بأنهم يخطفون

البنات فهو افتراء، الحقيقة أن ثمة أناسًا يبيعونهم بناتهم وهن في سن صغير بسبب عجزهم عن إطعامهن.

- ومَن يضمن أن هؤلاء الغجر لن يجعلوها ترقص مع بناتهم لإمتاع الناس في البلدات على الطريق؟

- أنا أضمن، لأنهم لن يتوقفوا في أي بلدة لهذا الغرض.

قال ذلك لآزاد، ثم التفت إليّ:

- الغجر، يا ابنتي، قوم لا يُستهان بهم، طيبون ومغلوبون على أمرهم، مأكولون مذمومون مثل السمك، وليسوا قساة قلوب. إنهم يحسنون التصرّف كما يُحسن الآخرون. أعرف أحدهم منذ فترة طويلة يأتي كل عام ويقايضني السكّر والشاي والقهوة بالسمك. أستطيع أن أأتمنه على إيصالك إلى امرأة عربية في الموصل اسمها جوري، كريمة الأصل والنفس، من قبيلة تُدعى شمّر، وبذلك تكون حالك حال المُبعَدين من ملّتك. تأكدي أنني أفعل هذا حرصًا مني عليك، ووفاءً للوعد الذي قطعته على نفسي.

سألت الخالة آمنة زوجها مستغربةً:

- متى عرفت هذه المرأة وأنت لم تغادر البيرة إلاّ إلى الحج؟

- على مهلك يا آمنة. تعرّفت إلى زوجها أثناء الحج، سكنا وأكلنا وشربنا معًا في مكة، وعند الرجوع أصرّ على أن أرافقه في قافلته المتجهة إلى الموصل. استضافني في بيته بضعة أيام وصرنا مثل أخوين.

- لم تذكر لي ذلك، قلت إنك تخلّفت عن الركب؟

ردّ العم لقمان في شيء من الحدة:

- هل كان خليق بي أن أطلعك على كل شيء؟

أجفلتني الفكرة، وارتعدت أوصالي، وقلت:

- متى سيرحل هؤلاء الغجر؟

احتضنني وطبع قبلةً على رأسي وقال:

- غدًا فجرًا.

- وهل تستغرق رحلتهم وقتًا طويلًا.

وضع كفه على كتفي:

- ليس أقل من أسبوعين، خاصةً أنهم يسيرون يومًا ويرتاحون يومًا.

هززت برأسي، مصطنعةً الموافقة، كما يفعل أيما مذعن، إلاّ أن آزاد هتف:

- ها أنت ذا قلتها بنفسك، ربما يستقبلون زبائنهم أيام راحتهم ليقدموا لهم خدمات الرقص والغناء وأشياء أخرى.

استفزت عبارة «أشياء أخرى» العم لقمان، فانتهر آزاد بنفاد صبر ونبرة حازمة:

- اخرس أيها السفيه، من أين تأتي بهذا الكلام؟ أعرف ما يدور في رأسك. لا تظن أنني غُفل عن حركاتك الصبيانية، لكنني سأؤجل قصاصي لك إلى ما بعد ذهاب البنت.

كان الجميع يتحدثون باللغة التركية لكي أفهم ما يقولون، وعندما انتهى العم لقمان من جملته الأخيرة امتعض آزاد، وبارح موضعه في تعجّل ميمّمًا شطر فناء الدار، وبقيت الخالة آمنة ساكنةً، لم تنبس بكلمة، اكتفت بهز رأسها، فلم أعرف إن كانت مؤيدةً للقرار الذي اتخذه زوجها أو أنها ضده. أما بهار فقد امتقع وجهها وكسته غلالة حزن، وتحيّرت في عينيها الدموع.

# (35)

آلمني النفي مرةً ثانيةً، واشتعلت أسئلته في داخلي: هل قُدّر لي أن أكابده على نحو موصول؟ لماذا يتعيّن عليّ أن أقاسي عذاباته؟ أحسست تارةً بأنني أشبه بغزالة جريحة، وتخيلت نفسي تارةً أخرى مجرد فراغ لا يشغل موضعًا في هذا الكون، وملأت الظلمة روحي، وغار قلبي، وفاض أساي حتى كاد ينهمر دمًا من عينيّ.

مضى الليل بطيئًا وأنا مستلقية على حشيتي، تصرّمت ساعاته في أرق رهيب. أطبقت عينيّ وحاولت أن أخلد إلى النوم لأصحو في الفجر، إلاّ أن النوم جفاني، فرّ مثلما يفرّ مجندو الحرب، وكأنه ينافس بهار في حزنها وانكسارها.

تمنيت لو أن هذه المخلوقة تمتلك صوتًا شبيهًا بصوت مريم لتغنّي لي بالكردية الأغنية ذاتها التي غنّتها صديقتي خلال لقائي الأخير بها، ذلك اللقاء العصي على التكرار، اللقاء القدري المبهم الذي بقي شيء مني في ثناياه.

ناجيت العذراء:

- يا أم الراعي الفاضل، أنا في حاجة شديدة إلى الأغنية ذاتها لتمس كلماتها شغاف قلبي، ليجلو نغمها أعماقي، لتكون سلواي في

انتظار ما يخبئه الغيب لي، لأستعيد من خلالها الوجوه والأنفاس التي فارقتها.

لكن طيفًا أشبه بكوميتاس خايلني، فجأةً، في العتمة، وقال بصوت أثيري: «أنّى لبهار الغناء يا لوسين؟ هذه المخلوقة الضعيفة محكوم على شفتيها بألاّ تنفرجا. لا ليس بميسورها أن تترنم بتلك الأغنية، عليك أنت أن تترنمي بها، فصوتك أيضًا أمسى شجيًّا، غسله الراعي الفاضل بدمه، وباركه وطهّره وأضفى عليه حلاوةً من روح القدس. غنّي بنبرات فيّاضة، لا بحنجرتك فقط، بل بكامل انفعالات روحك، حتى يسمعها جندرمة السلطنة، بل السلطان نفسه، وترتقي مدارج السماء، وتبلغ عليائها، وتقضّ مضاجع ملائكتها وكواكبها ونجومها وزرقتها وظلمتها ونورها، غنّي بكل ما أوتيت من قوة حتى تتقطع أوتار حنجرتك».

غاب الطيف عن ناظريّ، فجأةً، مثلما تبدّى لي، وخلّاني مشدوهةً. همست باسم بهار لأتأكد إن كانت قد رأت وسمعت ما رأيت وسمعت، إلاّ أنها لم ترد عليّ، استسلمتْ للنوم تاركةً إياي أصارع مخاوفي، وأتجرع مرارة قلقي.

بعد لحظات بزغ الفجر، لمحت أشعته خلل درفتي النافذة، فانطلق من داخلي صوت عميق يردد الأغنية، وخُيّل إليّ أنني أطير، خفيفةً، فوق سطح البحر الذي توغل فيه كوميتاس.

استفاقت بهار على الفور، واستوت جالسةً على حشيتها تحملق فيّ من غير حركة. ولما كفّ الصوت عن تدفقه، رغم أني أردت له أن يدوم، أن يستمر إلى ما لا نهاية، مدّت ذراعيها صوبي

وشدّت على معصميَ، ثم استقامت واقفةً وعانقتني، وأخذت تنشج بحرقة. بقيت متشبثةً بها، وأسندت رأسي إلى كتفها، وأغمضت عينيّ نصف إعماضة، فتراءت لي عشرات الفراشات المضيئة تحلّق في فضاء الغرفة، لكأنها تبعث في نفسي العزم، وتحثني على قهر الخوف في صدري، ومواجهة حياتي التي ستأخذ مجرى جديدًا.